دير القديس أنبا مار
بسرية شيهيت

أحاديث
الأب متى المسكين

الأب متى المسكين

كتاب: أحاديث الأب متى المسكين.
الطبعة الأولي : ٢٠٠٩.
الطبعة الثانية: ٢٠١٤.
مطبعة دير القديس أنبا مقار - وادي النطرون.
ص.ب. ٢٧٨٠ القاهرة.
الناشر: دار مجلة مرقس ص.ب ٣١ شبرا القاهرة.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٤٠٢٣ / ٢٠٠٩
رقم الإيداع الدولي: ISNB 977-240-271-8
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.

متى المسكين، ١٩١٩-٢٠٠٦
أحاديث الأب متى المسكين
٠- ط ١٠- وادي النطرون . دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت؛ (٢٠٠٩).
٢٨٨ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك ٩٧٧٢٤٠٢٧١٨
١-أقوال الآباء
أ. العنوان ٢٧٤,٣

يُطلب من:

دار مجلة مـــــرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا - تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ٨ شارع جرين - محرم بك ت: ٤٩٥٢٧٤٠

أو من: مكتبة الدير

أو من خلال الموقع على الإنترنت:

www.stmacariusmonastery.org

المحتويات

صفحة

- **الحديث الأول:** ٥
  - ١ - يقظة الكنيسة شفاء للبشرية ٦
  - ٢ - عن الوحدة المسيحية
  - - الكنيسة ومسئوليتها عن العالم ١٤
  - ٣ - رسالتنا تجاه العالم ٢٢
- **الحديث الثاني:** ٢٩
  - منهج التعليم عند الأب الروحي ٣٠
- **الحديث الثالث:** ٤٣
  - ١ + الروح الوطنية ٤٤
  - + الحياة الرهبانية ٤٦
  - ٢ + الكتاب المقدس ؛ ٥٢
  - + النفس المنطوية والنفس المنبسطة ؛ ٥٦
  - + الإرشاد الروحي وأب الاعتراف ؛ ٥٧
  - ٣ + المفاضلة الفاصلة ؛ ٥٩
  - + كيف كتب السيرة الذاتية؟ ٦٣
  - ٤ + بين التصوُّف في الأديان الشرقية، والتصوُّف في المسيحية ٦٦
- **الحديث الرابع:** ٧١
  - + حياة الرهبنة - أعماقها وطبيعتها ٧٢

● الحديث الخامس: ٩٣
+ الله، المسيح، الرمز ٩٤
● أحاديث متفرِّقة: ١١٣
- حديث مع راهبين من دير شيفتوني ببلجيكا ١١٤
- حديث مع وفد التليفزيون الفرنسي ١٢٤
- حديث مع وفد كنيسة السويد ١٢٧
- حديث مع مندوب هيئة التليفزيون الألماني ١٣٣

الحديث الأول

عن حديث أدلى به الأب متى المسكين
لمندوبة وكالة آسوشيتدبرس في أول فبراير سنة ١٩٧٦
وقد نُشر هذا الحديث في مجلة مرقس،
أعداد: يناير، فبراير، مارس سنة ٢٠٠٧

- ١ -

يقظةُ الكنيسة
شفاءُ للبشرية

قال الأب متى المسكين:

- لقد قلتُ لكِ إن العالم لن يمكنه أن يبلغ إلى النضوج الكامل بسبب عدم امتلاء الفرد بالروح القدس. وأنتِ تسألينني: ما معنى ذلك؟

- إن الروح القدس لا يمكن أن يحلَّ في الجماعة إلاَّ بعد أن يحل في الأفراد أولاً. فالروح القدس له عملان: عمل فردي، وعمل جماعي. العمل الفردي أن يرتفع بالشخص البشري إلى مستوى الروح؛ أما العمل الجماعي، فهذه هي الكنيسة. والكنيسة - واقعياً - هي الآن غير كاملة.

العقيدة والحياة الروحية الشخصية متصالحتان ومتساندتان:

● المندوبة: أتقصد الكنيسة القبطية؟

- لا، بل الكنيسة على مستوى العالم. فالكنيسة حتى الآن غير ناضجة not mature، لأنها نسيت أصلها، ونسيت ماضيها الجميل. هي الآن تعيش منفصلة عن روح الآباء. وبهذه المناسبة، فالفكر اللاهوتي في الكنيسة يعمل على مستويين: مستوى الكنيسة، ومستوى الفرد. أما على مستوى الكنيسة، فهذا هو "لاهوت العقيدة" The Theology of the Dogma؛ وأما على مستوى الفرد، فهذا يظهر في "الحياة الميستيكية"

mysticism أي "الحياة الباطنية". وأجمل ما كان في الكنيسة في الماضي أن هذين المستويين كانا متصالحَيْن ومتفقَيْن جداً جداً، وكل مستوى كان يسند المستوى الآخر.

فالعقيدة التي هي ثابتة تسند الاختبار الروحي الذي هو فعَّال dynamic، أي تحافظ عليه من الزلل ومن الضلال، وتحافظ عليه من الغرور والكبرياء الفردي. فكانت العقيدة محبوبة، وكان الأفراد ينمون روحياً وبقوة، وكانوا يستمدون قوتهم من العقيدة. وهذا ليس كلاماً نظرياً. فإذا رجعتِ إلى كتابات الآباء، فستجدينهم دائماً ماسكين في العقيدة، يشرحون فيها ويتأملون. فالأب الكنسي يمسك في العقيدة، ثم ينطلق منها إلى التأمل، ويتجاوز القانون الذي هو ثابت لينطلق في التأمل[1]. فكل الحياة الميستيكية (الروحية الباطنية) لآباء الكنيسة وكل تأملاتهم كانت قائمة على العقيدة. وكان الاحترام عظيماً للعقيدة.

نكسة العصور الوسطى:
انفصام العقيدة عن الحياة الروحية:

فلما جاءت القرون الوسطى في الغرب، حصل انفصام بين "لاهوت العقيدة" وبين "اللاهوت الميستيكي"، أي "لاهوت الاختبار الروحي الفردي". وهنا استبدَّت الكنيسة واستبدلت الخبرات الروحية الفردية بالعقيدة، فانضغطت الخبرات الروحية الفردية وماتت، وعاش القانون الصارم؛ فدخلت الكنيسة في عصر مظلم.

---

(١) كلمة "تأمل" في العربية لا تُعبِّر جيداً عن مفهوم "الثيئوريا"، وهي الكلمة اليونانية التي استخدمها آباء الكنيسة ونُسَّاكها للتعبير عن "الرؤيا" العميقة الباطنية لِمَا وراء المنظور والمادة والكلمة المكتوبة.

• المندوبة: حينما تتكلَّم عن الخبرة الروحية الفردية، فهل أنت تعني التأمل في الكتاب المقدس؟

- أقصد بالخبرة الروحية الفردية، الحياة المسيحيه حينما يحياها الإنسان لنفسه وليس لخدمة الآخرين. فيحيا الإنجيل، يحيا التجسُّد، يحيا الصليب، يحيا القيامة. ويعيش هذه كلها ويتحد بها بقلبه، بروحه، فتُستعلَن له أكثر فأكثر.

علاج النكسة بنكسة: حركة الإصلاح:

نكمل حديثنا. فبعد نهاية العصور المظلمة، قامت الحركة البروتستانتية التي يسمونها "حركة الإصلاح". وهذه كانت في واقعها يقظة فردية ضد العقيدة، أي صحوة للخبرة الروحية ضد العقيدة الثابتة، فحصلت العداوة المُرَّة بين الاثنين، وحصل الانقسام في الكنيسة.

وفي الحقيقة، كان ينبغي أن تحدث أولاً صحوة في العقيدة، وبعد ذلك يتصالح الاثنان معاً مرة أخرى، أي العقيدة والخبرة الروحية الفردية. ولم تنجح الحركة البروتستانتية في أن تُدخِل العقيدة مرة أخرى، لأن غضب الكنيسة الرومانية الكاثوليكية في الغرب على هذه الحركة ظل مستمراً، وهكذا ظل الانقسام مستمراً.

صحيحٌ أنه حصلت صحوة فردية بعيداً عن العقيدة، ورجعت الحرية مرة أخرى للأشخاص الروحيين، لكنها خلَّفت العداوة والانقسام.

ولكن بعد مدة كبيرة (٤٠٠ سنة تقريباً) استيقظت الكنيسة الكاثوليكية، وابتدأ يدخل فيها عصر الخبرة الفردية، ولكن تحت رعاية العقيدة. وهكذا عادت تسترد أنفاسها مرة أخرى، ولكن تم ذلك للأسف

وهي ضعيفة وخائفة، خائفة من الحوادث ومن الأفراد. فلما ابتدأتْ تصحو، كانت تمنع أي واحد أن يقرأ الإنجيل وحده، بل كان الكاهن هو الذي يحدد له الأصحاح أو الجزء من الأصحاح الذي يقرأه، وحتى الآن ما زال عندها خوف وانزعاج، إذ تخاف من الحرية الفردية.

والكنائس التقليدية كلها، كاثوليكية وأرثوذكسية، ظلَّت منطوية على نفسها، ولكنها قليلاً قليلاً بدأتْ تستيقظ وتسترجع قوتها. فانقشاع الظلمة في العصور الوسطى المظلمة بدأ بالحياة الباطنية الروحية mysticism المتمثِّلة في كبار الروحيين. وقد بدأت هذه الحركة في الغرب بفرنسيس الأسيزي والجماعة التي تبعته، وكذلك بمجموعة الروحيين الألمان German Mystics وباقي الروحيين. وهكذا حصلت صحوة من خلال الاختبار الروحي الفردي، استعادت فيها الكنيسة نفسها مرة أخرى.

وأعود فأقول إن علم اللاهوت لا يمكن أن يقتصر مفهومه على أنه عقيديٌّ dogmatic فقط، ولا على أنه مجرد اختبار روحي شخصي فقط، وإلاَّ تتمزَّق الكنيسة. فلابد من التلاحم بين العقيدة والخبرة الروحية الشخصية معاً.

دخول الآلة في حياة البشر وموقف الكنيسة منها:

غابت شمس حركة الإصلاح البروتستانتي وهي في أَوَج عظمتها الأولى القائمة على الحرية الفردية وعلى النشاط الروحي لوعَّاظهم الكبار، الذين انطلقوا من أوروبا وبشَّروا أمريكا. وأخذت أمريكا هذه العدوى الروحية منهم وخرجت بحركة التبشير والمبشِّرين إلى دول أفريقيا وآسيا، وجالت في

كل العالم، ثم انطفأ الروح مرة أخرى على أثر النهضة العلمية وظهور الآلة. وابتدأت الآلة تمتص من قلب الإنسان، وتحطُّ من عقله، وتمتص عصارة قلبه وعواطفه. وكبر دماغ الإنسان، ولكن تصاغر قلبه.

ولما اكتشف الإنسان ضياعه أمام الآلة الضخمة، ابتدأ يدخل في الموقف الحرج الأخير، وهو عدم النضوج الكامل. وفي الحال ظهرت أعراض المرض في جسم البشرية، ومظاهر الشيخوخة المبكرة. وتستطيعين أن تري الفرق هكذا: في نهاية القرن التاسع عشر (سنة ١٩٠٠) وبداية القرن العشرين، كانت البشرية مستنيرة وقلبها مستنيراً، والدين متغلغلاً في كل شيء، وأعظم العلماء كانوا متدينين، والأمل يحدو الإنسان في عصر قادم زاهر ومُفرح. ولكن لم تمضِ خمسون سنة إلاَّ والبشرية صارت شيخاً هرماً وقد انحنى ظهره أمام المشاكل المريعة التي واجهته بسبب ما خلَّفته الآلة الضخمة: مشاكل اقتصادية، وأخرى اجتماعية، ومشاكل أُسرية ونفسية وصحية، وأوبئة وتلوُّث، وضياع على مستوى القارات والأُمم، جماعاتٍ وكنائسَ وأفراداً.

الصدمة:

وظهرت حركة "البيتلز Beetles" ومن بعدها حركة "الهيبيز Hippies"(٢) كحركة احتجاج على الدولة والسياسة عموماً، وأيضاً على الكنيسة. كانتا معاً حركة فلسفية ضد قوانين المجتمع، وضد تدهور الصحة والاقتصاد والسياسة والدين وكل شيء. والعالم فعلاً أخطأ،

---

(٢) حركتان شبابيتان ظهرتا في أوروبا وأمريكا في الستينيات من القرن العشرين، وكان أساس الحركتين هو استنكار النظم الاجتماعية، والدعوة إلى السلام والمحبة بين الناس. فكان الشباب يتركون شعرهم بلا حلاقة، وكانت ملابسهم قذرة متهرِّئة.

والكنيسة كانت تتعثر، لم تكن بقادرة أن تُصالِح الإنسان مع الله، وبهذا لم تكن تقوم بواجبها تجاه شباب العالم. وتفشَّت هذه الظاهرة حتى في بعض دول أفريقيا وآسيا، لدرجة أنها طالت اثنين من الوزراء في انجلترا ورهباناً وكهنة وأساقفة في الغرب، ما يُظهِر أن الحكومات، والكنائس قد أصابتها الشيخوخة.

أنتِ تسألين: متى يصل العالم إلى درجة النضوج، حيث يتقبَّل فيها الوعي الروحي السليم لكي يكسر الحواجز العنصرية والطائفية والفوارق الثقافية، فتتقابل البشرية معاً؟ لا يمكن أن يحدث هذا بدون "الصدمة" shock، لابد من المأساة tragedy، لابد أن تواجه البشرية نفسها.

- **المندوبة: إذن، هذه الحركة كانت نافعة؟**

- إن هذه الحركة كانت كفيلة بأن توقظنا، بل تحرِّك الله والروح القدس على مسئوليته تجاه البشرية. فالبشرية افتُضحت وعرَّت نفسها. أَتقبَلْ يا روح الله؟ أتقبَلْ يا ربي يسوع أن تترك جسدك وكنيستك تتعرَّى وتُفضح!؟ فهذه الحركة المزدوجة أحدثت هذه الصدمة لدى الكنيسة والبشرية والحكومات، وحرَّكت الروح القدس.

لقد بدأت البشرية تكتشف ذاتها، والكنيسة تدرك مقدار تخلُّفها عن القيام بدور المُصالِح والمُعزِّي للعالم المرهق. وكما قلتُ لكِ، حينما فوجئت الكنيسة وهي ضعيفة في القرون الوسطى بحركات العلم والفلسفة الكبيرتين: الفلسفة العلمية، والفلسفة الوجودية، وغيرهما؛ وحينما كبر عقل البشرية على حساب قلبها، لم تقدر الكنيسة أن تواجه هذه الحركات. وكان هذا أول نكوص. أما النكوص الثاني، فكان أنه لما دخلت الآلة وظهرت المشاكل الاقتصادية المريعة، ظهر عَوَز الكنيسة

وعجزها المريع. فلأن الكنيسة لا يمكن أن تدخل في هذا المجال، لأنه اقتصادي وسياسي، وبالرغم من مجهودات مجلس الكنائس العالمي وهيئات الفاتيكان لإعطاء معونات للدول النامية ولمصالحة السود مع البيض وغير ذلك؛ بالرغم من كل هذا لم تستطع الكنيسة أن توفي هذا المجال حقَّه، ولا الحكومات لم تستطع أيضاً، حتى أن علماء الاجتماع قالوا إن البشرية ستواجه مصيرها المحتوم، ليس بقنبلة ذرية بل بالاقتصاد المتدهور. ولم تكن هذه هي المحنة.

بل كانت المحنة أن الكنيسة تاهت عن ماضيها وعن طريقها وعن هدفها. فالبُعد عن الله، وعدم قيام الكنيسة بدورها، هو الذي أوصل العقل البشري إلى الانتحار الخفي هذا: الآلة الضخمة، الاستعباد لقوانين العقل والمادة، والجفاء أي موت العاطفة البشرية تجاه الحياة الأسَريَّة. أما رفع العين لله في السماء، فهذا صار في طي النسيان، ونُكِبَت البشرية.

فهل عند البشر علاج؟ مستحيل! منذ متى يستطيع البشر أن يُعالجوا أنفسهم؟ لقد وصلت الطاقة البشرية إلى الصفر، فمن أين آتي بطاقة ترفعها فوق مستواها؟ من أين آتي للبشر بوجدان واتزان وحكمة ورؤية واستعلان. لقد جربتُ هذا وأنا في دير به ٥٠ راهباً، كيف أَرقَى بالخمسين راهباً؟ لابد أن أرقى أنا نفسي ٥ درجات لكي أرتفع بخمسين راهباً. ووجدتُ الحل، فلما كنتُ أدخل في صراع مع نفسي ومع الله، لكي كل ما آخذه من الله لابد أن أوصِّله للرهبان، بينما أنا نفسي غير قادر على توصيله، إذ ليس عندي الطاقة التي أرتفع بها بالآخرين؛ أجد أنه كلما صمَّمتُ أن أكون من الداخل صادقاً في هذا الشعور، يساعدني الله، فيأخذ الروح ويُعطي، ويُعطي لي أكثر مما عندي.

لذلك، أصبح أملنا الوحيد اليوم، في قادة روحيين يُشخِّصون مرض الكنيسة ومرض البشرية، ثم بصدق وإخلاص يرفعون قلوبهم لله. حينما نقرأ عن حنة النبية أيام ميلاد المسيح، نجد أنها كانت لا تُفارق الهيكل عابدةً بأصوام وطلبات ليلاً ونهاراً أكثر من ٨٤ عاماً؛ وحينما رأت العذراء في الهيكل وهي حاملة ابنها الطفل يسوع، وقفت تُسبِّح الرب، وتكلَّمت عنه مع جميع «**المنتظرين فداء في أورشليم**» (لو ٢: ٣٦-٣٨).

انتظار الفداء:

كان كل الأنبياء في العهد القديم يقفون ليصلُّوا ويعبدوا على رجاء أن شيئاً ما سيحدث. الله لا يطلب منا الآن أكثر من الرجاء. ولو فقدناه، تكون البشرية قد فَقَدَت حتى الله. فكل ما نرجوه، أن يبقى في الكنيسة قادة روحيون يملأ الرجاء قلوبهم بأن الله سيعمل، ولابد سيعمل.

- ٢ -

عن الوحدة المسيحية
الكنيسة ومسئوليتها عن العالم

عن الوحدة المسيحية:

قال الأب متى المسكين:

- هناك شعورٌ طاغٍ بضرورة الوحدة المسيحية بين كل الكنائس، فكل كنيسة تُنادي بضرورةً الوحدة المسيحية. ولكن الوحدة مستحيلة طالما البشرية مريضة. الوحدة تتم بين أُناس متساوين، أو سويين. الوحدة لا تتم بين مرضى، ولا بين قلوب مريضة، ولا بين نفوس مريضة. وحتى لو تمَّت وحدة بين مرضى، فهي تكون وحدة مريضة. فلا يمكن تحقيق وحدة بهذه الصورة. ولكن هذا الشعور الطاغي واللجاجة والإحساس بضرورة الوحدة هو في الواقع شعورٌ متساوٍ بالخطر.

فالحقيقة ليست أن الكنائس تريد الوحدة، بل هي في الواقع تريد أن ترفع صوتاً واحداً. فالوحدة، الآن، موجودة، ولكن في شكل صوت واحد يرتفع بالصراخ إلى الله بأننا في عَوَز، وأننا تعابى. وهذا هو المطلوب. أما الوحدة فالذي يُحقِّقها ويُكمِّلها هو الروح القدس.

لذلك، فالردُّ المباشر لصراخ الكنيسة أو صراخ القادة الذين يَعَوْن الحقائق، لن ننتظره من الناس، هذا مستحيل. فلا يمكن لرؤساء الكنائس حتى لو وقفوا كلهم معاً متحدين بعضهم مع البعض أن

يُنجزوا شيئاً في الوحدة. فالعمل فائق على إمكانية البشر. إن التعب مشترك في الجسد كله، جسد البشرية كله: حكومات وكنائس، في الذين داخل الكنيسة والذين خارج الكنيسة، في الذين يعرفون الله والذين لا يعرفون. المرض واحدٌ، والصراخ واحدٌ، والتعب واحدٌ. لذلك فليس ممكناً أنَّ العلاج يبتدئ من الكنيسة، هذا مستحيل. لابد أن يعمل الله شيئاً.

ولكن، مَنْ الذي يقوم بالاحتجاج؟ مَنْ الذي يقوم بالصراخ؟ كان من الواجب أن تظل الكنيسة سهرانة، واعية بحالة جسم البشرية، أو جسم الكنيسة على الأخص، أي أن تكون الكنيسة كرأس واعية بالبشرية المُتعَبَة، فتقف لتصلِّي.

ولكن للأسف، كما قلت، فإن الكنيسة نفسها مُتعَبَة هي الأخرى. فمَن الذي يصرخ؟ كما قلتُ، كانوا هم الهيبيز والبيتلز، فهم يُسفِّهون أنفسهم ويُوسِّخون منظرهم، ويعملون كل الموبقات. هذه كلها كان يُسمِّيها العهد القديم «لإغاظة الرب» (١مل ١٦: ٧؛ ٢مل ١٧: ١١؛ ٢٣: ٢٦). فهؤلاء كانوا يعملون هذه الموبقات "لإغاظة الكنيسة"، لعل الله يتحنن من فوق. ولا يمكن أن يسكت الله طبعاً.

من بين العثرات التي حدثت في الكنيسة في الغرب، خروج الرهبنة إلى الشارع، وهذا كان أحد الأسباب في ضياع الهدف في الكنيسة. كان الخيار إما أن تخرج الكنيسة إلى الشارع، وإما تُدخِل الشارع إلى داخل الكنيسة، فاستسهلت الكنيسة في الغرب أن تخرج إلى الشارع، فنسيت نفسها، ولم تَعُد ثانية إلى داخل الكنيسة. فَضَّلَت أن تخرج وتخرج وتخرج، إلى أن نسيت أصولها، فلم تستطع أن تحافظ على نفسها وخُدَّامها.

الاعتزال عن العالم لخدمة العالم:

- الكنيسة تمثِّل دائماً حركة النبوَّة. والنبي دائماً كان يعتزل. المسيح نفسه كان يعتزل في الجبال والبراري ويبيت هناك وحده (لو ٢١: ٣٧). لماذا؟ لكي يرى العالم على حقيقته. لا يمكنك أن ترى العالم رؤية صحيحة وأنت داخله. لا يمكن أن تحلَّ مشكلة وأنت فيها أو واقعاً فيها، لابد أن تكون خارج المشكلة لكي تحلَّها. لابد أن تكون الكنيسة منفصلة عن العالم لكي ترى العالم رؤية واضحة. لابد أن تكون متفوِّقة على العالم لكي تقدر أن تشدَّ العالم إلى فوق، وعلى حسب قول العالِم القديم أرشميدس: "أعطوني نقطة ثابتة خارج الكرة الأرضية وأنا أُحرِّك الكرة كلها".

نحن النقطة الثابتة خارج الكرة الأرضية. فنحن نستطيع أن نحرِّك الكرة الأرضية. نحن لسنا من العالم، ولا يمكن أن نندمج في العالم ولا أن ننزل إلى مستوى الشارع، نحن نعيش في السماء مع أنَّ لنا شكل الناس وكلام الناس وأفكار الناس؛ ولكننا من الداخل مشدودون إلى فوق. مركز الجذب بالنسبة لنا ليس أرضياً، وحياتنا نستمدها من فوق من عند المسيح. لذلك، بنعمة الله، كل مَن يأتي إلينا نشدُّه إلى فوق، لأن مركزنا بعيد عن الأرض، لا أحد يقدر أن يشدَّنا أو يُلقي بنا. أية مشكلة تعرض لنا، نعرف أن نجذبها ونُدخِلها داخل المسيح، ليس المشكلة الفردية فحسب، بل والمشكلة الكنسية أيضاً.

يأتي إلينا هنا أُناس كاثوليك أو بروتستانت، وحتى لو كانوا في أعلى حالة من التخوُّف منا أو التعصُّب، لكنني أعرف كيف أشدُّهم للمسيح. ولابد أن يخرجوا أصدقاء لنا جداً وأحباء جداً جداً. ليس هدفي

أن أجعلهم أرثوذكساً، ولكني في الواقع عرفتُ أن أُبعدهم عن مصادر التعصُّب فأجعلهم أحباءَ. إن مصدر التعصُّب أرضي، لا يمكن أن يكون سماوياً. هل من الممكن أن تكون السماء مصدر القلق وسبب التعصُّب والانقسام؟ يستحيل! إذن، لابد أن تغبطي أو تباركي منهج حياتي، أن لا أنزل إلى العالم لأخدم. لابد أن أبقى بعيداً، ولكن بشرط أن يكون عقلي واعياً، أدرس وأقرأ وأعرف وأرى كيف يعيش الناس؟ ولماذا هم تعابَى؟ ولكن أعيش هذا كله وأنا متصل بالله، مُتجرِّداً عن العالم.

معرفة العالم بالنسبة للإنسان الروحي:

• المندوبة: لكي تقدر - كما تقول - أن تحرِّك هذا الكون، ألاَ يجب أن تكون عارفاً هذا الكون لكي تقدر أن تؤثِّر فيه؟

- نعم، هذا - في الواقع - عنصر من العناصر المهمة جداً في الموضوع. وإن كان الإنسان الروحي يستطيع أن يتعمَّق الأشياء ويُدرك كُنهها. وكما ترين، فأنا أستطيع - وقد مضى عليَّ ٢٧ سنة لم أنزل للعالم ولا أعيش في العالم - أن أتفهم أعماق وأبعاد أمور كثيرة في العالم. مثلما رأيتي من معرفتي بحركات الهيبيز والبيتلز، ثم آلام روسيا (قبل انهيار الشيوعية في بداية التسعينيات من القرن الماضي). فأنا أعرف جيداً عن الكنيسة هناك والحياة تحت ظل الشيوعية. فمعروفٌ أن روسيا بلدٌ شيوعي، والمسيحية تُعاني فيها الكثير. ولكني أقول لكِ إن المسيحية ضائعة وتعاني في انجلترا وفرنسا، ولكنها ليست ضائعة في روسيا. ففي روسيا ٤٠٪ من الشعب يمارسون أسرار الكنيسة داخل الكنيسة؛ بينما في فرنسا ٨٪ وانجلترا ٤٪.

لقد عشتُ مع فيتنام (أثناء حربها مع أمريكا) وتألمتُ بآلامهم

وكتبت عنهم. إني أعيش حركات العالم وأنا داخل الدير. فأنا أقرأ وأسمع عن هذه الحركات أولاً بأول، وكذلك ما يستجد في العالم من علوم وإنجازات. إن الرجل الروحي المنعزل في البرية يمكن أن يكون أكثر تفاعُلاً مع العالم من الذي يعيش في العالم. فأنا أستطيع لا أن أُشخِّص مرضه، بل وأقدر أن أُعالج، وهذا هو المهم. أستطيع أن أرى بالرؤية: أي الحَدْس intuition بالإضافة إلى الإلهام inspiration، الاثنان معاً بهما أستطيع أن أرى ما يمكن أن يُعالَج به العالم. ولكن لو أنا نزلت إلى العالم لأعيش فيه، فأكون قد مُتُّ.

● **المندوبة: في بداية السؤال الثاني الذي كنت أسألك فيه عن الرهبنة، أنا أحسُّ أنك أدخلتَ معنىً جديداً عن الرهبنة بمفهوم أنها: لا هي منعزلة إطلاقاً، ولا هي مندمجة إطلاقاً.**

- هذا صحيح، وهذه هي في الحقيقة حياتي. أنا أُحيي الرهبنة الآبائية الصحيحة، وأُضيف عليها عنصراً جديداً. فالرهبنة القبطية القديمة هي الرهبنة المنعزلة جداً عن العالم، وكانت قوية جداً. ثم أضفتُ لها العامل الجديد، مع احتفاظي ببُعدي عن العالم، فازددتُ بُعداً عن العالم ولكن قُرباً من الناس.

● **المندوبة: هذه قدرة المحبة؟**

- جداً جداً، ويمكنكِ أن تحسِّيها حينما تسيرين وسط الدير، فإذا قابلتي راهباً وسلمتي على أي راهب تجدينه يُقابلك بفرح ومسرَّة، مع استعداده لأداء أية خدمة، وهكذا مع أي إنسان. الإنسان البسيط الفقير - ولو كان غير مسيحي - نقابله أحسن مقابلة، نُقبِّله ونضع أمامه أفضل الطعام. نحن نمارس الحب الإلهي بالفعل.

• المندوبة: كما طلب منا ربنا أن نحب قريبنا مثلما نحب أنفسنا!

- نعم.

• المندوبة: ولكن الرب يسوع قال إن الشجرة التي لا تطرح ثمراً نحرقها. إذن، أنتم عندما تطرحون ثمراً، إنما تطرحونه في قلوب الناس. فنحن نريدكم أن تدخلوا في الناس لكي تطرحوا ثمراً أكثر في الناس؟

- كان لابد أن أوضح شيئاً منذ البداية. فالسؤال المُحيِّر عندكِ له جواب، ولكني لم أنتبه له. فنحن في الواقع لا نعيش بحسب إرادتنا. أنا أسير تابعاً لتدبير الله. أي أن الله هو الذي يقودني في حياتي. ولا أخطو خطوة واحدة من نفسي. فأنا لم آتِ إلى الدير هنا بإرادتي، لقد أتينا إلى هنا وعشنا العيشة التي أتكلم عنها ليس بإرادتنا. وأما متى ستنتهي؟ فلا أعرف.

ولكني أقول إنه سيأتي اليوم، لا أعرف متى! ولكن سيأتي حينما يحدث تشتُّت. يُشتِّتنا الله في العالم كله، ولكن بعد أن يكون كل واحد منا قد عرف كيف يضرب بجذوره، ويصير شجرة راسخة باسقة.

أما الآن فلم يأتِ هذا اليوم بعد. ولكن اتصالنا اليومي الآن بالناس لا يقل عن ٢٠٠ أو ٣٠٠ زائر من جميع أنحاء العالم. وأنا مهما تجوَّلتُ في العالم فلن أبلغ إلى هذا العدد. ثم إن الاتصال بالرؤوس يُحدِث أثراً أكبر من مقابلة شعوب العالم. فيحدث أن يأتي أُناس زوَّار لهم قدرة أن يؤثِّروا في الآخرين، فحينما أجلس معهم أحسُّ أنهم قد تغيَّروا تماماً. فالفرصة الناجحة أن يقوم هؤلاء ويغيِّروا الناس في الأماكن التي أتوا منها، فنكون كأننا نُثمر هناك أيضاً.

ماذا يريد العالم منا؟

• المندوبة: عندي سؤال تحيَّرتُ هل أسأله أم لا؟ ماذا تظن؟ ماذا يريد العالم منكم؟

- العالم محتاجٌ منا أن نكون أنقياء من الداخل، ولا نكون مُرائين، أنقياء في الدوافع وفي الأهداف. حينئذ نكون عند حُسن ظن العالم فينا. أي أننا ونحن نعيش خارج العالم من أجل العالم، لا نكون نكذب على العالم، وكأن العالم أخرجنا خارج العالم إلى الجبل، وقال لنا: صلُّوا، واعرفوا ما هي أتعابي، وما هي همومي، وعالجوني! فإذا بنا ننام ونأكل ونقول: ما لنا وما للعالم؟

العالم يريدنا أن نكون رهباناً أنقياءَ، نحيا بالصدق وبالأصالة، أصالة في تفكيرنا وفي سلوكنا، لا نكون ذوي قلبين، نعيش لأنفسنا وللآخرين، لا. بل الراهب يموت لكي يعيش غيره، وليس لكي يعيش هو. وأعتقد أن هذه هي الرسالة التي ضاعت من الرهبنة فضعفت الكنيسة.

فاليوم الذي فيه نصحو وننتبه لحدود رسالتنا تماماً، فالعالم سينتفع بنا جداً جداً. العالم اليوم ليس محتاجاً لكلام، هو محتاج لإنسان له علاقة بالله، يسمع من الله ويُوصِّل للعالم. العالم غير قادر على الوصول لله مباشرة. فالعالم مطحون بهموم وأفكار وأتعاب ومشاغل، وبعمل إضافي، وبأعمال فوق الطاقة. والوقت لا يكفي لإتمام الأعمال. فمَن يوصِّل رسالة الله؟ مَن يوصِّل له صوت الله؟

كان الأنبياء قديماً يعتزلون، ويضع الله يده عليهم، ثم يخرج النبي من عزلته ويقول للناس: "يقول الرب:...". فماذا يطلب منا العالم اليوم، ماذا يريد منا؟ العالم يطلب وليس من مُجاوِب؟ لماذا؟ لأنه لا يوجد أحد

يقف أمام الله ويسمع صوت الله. العالم لما سمح لي أن أخرج كراهب، قال لي: اطلع الجبل، وسأُعطيك ما يعولك؛ فقط قُل لنا: ماذا يريد الله منا؟

هكذا كانت الرهبنة قديماً. كان العالم يُخرجهم لكي يكونوا أصحَّاء من الداخل ثم ليجعلوا الآخرين أصحَّاء. فإن لم يشفِ الراهب نفسه، وعاش لنفسه واكتفى بالبُعد عن الناس، فالعالم سيتعب وسيجحد الرهبنة، وسيقولون لنا: أنتم أُناس بطَّالون، والرهبنة بطَّالة، والرهبان كسالى ولا يستحقون أن يعيشوا، وهذا ما قيل عن الرهبنة في وقت من الأوقات. لماذا؟ لأنه وجد هذا واقعاً فعلاً. لقد بنى العالم للرهبان أديرة وقدَّم لهم عطايا، وانتظر النتيجة فلم يجد!

فكل ما ينتظره العالم من الراهب أن يكون نقياً في رسالته ويحس بمسئوليته. أن يكون أولاً قد شفى نفسه، أن يكون هو قد تقبَّل في نفسه فعل الروح القدس، حتى يستطيع بالقوة التي بها عاش وشفى نفسه، بها أن يشفي الآخرين.

- ٣ -

رسالتنا تجاه العالم

المخطوطات القبطية:

• المندوبة: للكنيسة القبطية كمٌّ هائل من المخطوطات التي تُعبِّر عن تقليد الكنيسة، ومعظمها تشتَّت في بلاد أخرى من بلاد العالم. هل ستحاولون استرجاع هذه المخطوطات لقراءتها ودراستها في ديركم؟

- في الحقيقة، هذا كان الهدف الكبير الذي ابتدأتُ به، وظللتُ أُصلِّي أمام الله بدموع لكي تنتبه الكنيسة لتراثها وتُحضِر هذه المخطوطات، كما ناقشتُ هذا الموضوع مع قداسة البابا في جلسة خاصة. ثم أرسلتُ وأحضرتُ بعض المخطوطات وبدأتُ في الاطلاع عليها. ولكن الأمر كان شاقاً، فلكي أحصل على مخطوطة كانت تُكلِّفني مائة جنيه، ونحن لنا في الخارج آلاف المخطوطات.

ثم أحضرتُ مدرساً من الجامعة، أستاذاً في اللغة اليونانية الكلاسيكية، ودرَّس لكل الرهبان كورساً course كاملاً كان يستغرق دراسته في الجامعة ٤ سنوات. وبعد ذلك انتبهت جامعة جوتنجن في ألمانيا - دون أن نسألها، حيث تُسمَع أخبار الدير في أنحاء كثيرة من العالم - فأرسلوا عرضاً بمنحة لتدريس اللغة اليونانية داخل الدير، وأرسلوا مدرساً اسمه دكتور وليم ريدر، درَّس الرهبان منهجاً عالياً. وكان تقريره بعد الدورة الدراسية والامتحان: ٦ رهبان من ١٨ تقديرهم جيد جداً، ولابد من تكميل دراساتهم في الخارج للحصول على درجة

الدكتوراه، ولكن لم تتم هذه البعثة.

- **المندوبة: لماذا؟**

- لا أعرف.

- **المندوبة: وهل لا زالت هي أُمنيتك؟**

- لا، لقد قلتُ إن هذه ليست الرسالة. ونبَّهني الله أنه هو الذي سيعمل. والمخطوطات كلها سيُعطيها لنا داخل قلوبنا، وكما أعطى الآباء سيُعطينا، ولن نعود نفتش على الورق الأصفر، فسيُعطينا الله بغزارة. وفعلاً بدأ يُعطي اتساعاً في القلب وفي التفكير وفي التدبير للآباء كلهم. وأي راهب تجدين أن لديه تفكيراً جديداً، منهجاً سليماً، روحاً وثَّابة. لذلك ابتدأ الروح القدس يعوِّضنا عن هذا النقص.

لقد كان جهادي وتركيزي الشديد واهتمامي أن أترك مبادئ وحياةً لكل واحد يمكنه أن يحياها. وما نجحتُ فيه أن الرهبان يستطيعون أن يتبنَّوا جميع ما لديَّ من مبادئ ومحبة وبذل وجهاد ودقة في الأمور المادية والروحية، لأني أُسلِّم النوعين معاً، وهذه نعمة من الله وموهبة أن أترك جماعة تعيش بمبادئ متآلفة. وهذا هو النجاح أن أترك مبادئ حيَّة للناس لتعيش بها.

ودائماً أقول إن نجاح الإنسان يظهر بعد موته وليس في حياته. فإن نجاح أي قائد يظهر بعد موته، فإن كانت العَجَلة تدور بنفس القوة، فيكون هذا القائد قد عاش في الله، ومبادؤه كان يستلهمها من الله، واستطاع أن يُوصِّلها للآخرين. أما إذا كان سيترك شخصاً واحداً فقط، فهذه ستكون مجرد تلمذة عادية.

منهج التعليم في الكنيسة الأرثوذكسية:

• المندوبة: معنى هذا أنه مثل النجار الذي يُسلِّم ابنه صنعة النجارة فحسب. فهل تعتقد أن هذا المنهج الذي تتحدث عنه يدخل ضمن منهج التعليم في الكنيسة الأرثوذكسية؟

- أنا أعتقد أن نظام الكاتشيزم catechism الذي يُعلِّم المسيحية عن طريق السؤال والجواب المختصرين لا يتناسب قط مع الحياة الروحية، والحياة الأرثوذكسية بنوعٍ خاص. وبينما تحيا الكنيسة الكاثوليكية بالقانون والكاتشيزم، تحيا الكنيسة الأرثوذكسية بالإلهام والاستعلان. لذلك فإن قانونها غير محدود، مطلق يتجدَّد كل يوم، ومدرستها إلهام. وبالرغم من أني لا أُستعبَد بمبادئ، كما ليس لي أهداف بل أسير بالروح وبما يُرشدني به الله يوماً بيوم؛ ولكن العجب أني حينما أنظر ورائي أجد منهجاً، نظاماً، ومؤسسة تعمل. أما إذا نظرتُ إلى نفسي فلا أجد شيئاً، ولكن ما تركتُه يحكي أن العمل من الله وبدون تخطيط. والكل يعرف أني لا أُخطط لا لليوم ولا للغد، ولكن حينما أنظر ورائي أجد كأن العمل بتخطيط. فأنا لا أترك تعاليم، ولكن أترك حياة نجحت.

رسالتنا تجاه العالم:

• المندوبة: حينما كنا نتكلَّم سابقاً عن أن العالم نائم ونحن نرجو أن نوقِظه على مرأى من الله لكي يُشفَى؛ فهل لديك رسالة تجاه العالم؟

- طبعاً، رسالتي للعالم أن أبني نفسي أولاً بناءً صحيحاً، ثم أنطلق لأبني كل إنسان يستأمنني على نفسه بناءً صحيحاً. هذه هي الرسالة

التي أستطيع أن أؤديها للعالم؛ وهكذا كلما أعطاني الله أي عمل، أعمله. ولكن طالما أنا محدود بالعمل الذي أنا فيه الآن، فلابد أن أكون كاملاً في أدائه.

• **المندوبة: وعن الناس الذين لا يعرفون الله، ماذا تقول؟**

- لا قانون عليهم. كل مَن لا يعرف المسيح غير مُطالَب بشيء. المطالبة فقط للذين عرفوا المسيح. كل مَن عرف المسيح، ففي الحال هو مُطالَب، ولكن الذي لم يعرف المسيح فكيف يُطالَبُ؟ هؤلاء نحن مُطالَبون عنهم، فقط مسئولون عنهم، ولكن هم ليسوا مسئولين عن أنفسهم ولا عن أعمالهم. لذلك، فنحن لابد أن نبذل ونعطي ونعطف، لأن مسئوليتنا ضخمة جداً.

بالأمس تحدثت معكِ عن مدير في شركة بترول أمريكية، كنتُ أقول له: إنها مسئولية عظمى عليكم. فسألني: ماذا تعني؟ قلتُ له: أعني أنكم مسئولون عن الذين لم يبلغوا الحرية، أنتم مسئولون عنهم وستُسألون أمام الله، لأن الله أعطاكم الحرية وإمكانياتها من مال وقوة وسلطان وعلم ومعرفة، فأصبحتم مسئولين عن كل إنسان في العالم فاقد حريته. فاهتزَّ، وزوجته اندهشت، وقالت له: "فلان، هذا الكلام مهم". فقال لها: "نعم، أنا معكِ، هذا الكلام مهم".

هكذا نحن، فقد أخذنا المسيح، فأصبحنا مسئولين عن كل واحد لم يأخذه. إنها مسئولية خطيرة.

صوت الله، كيف نلبّيه:

• **المندوبة: هل ترى أن كل واحد فينا قد تسنح له الظروف أن يسمع نداء الله، ثم بعد ذلك يتجاهله؟**

- نعم طبعاً. الله فعلاً يُنادي، ويُنادي في الأعماق، يُنادي بصوت سرِّي لا يمكن لأحد أن يسمعه إلاَّ الشخص نفسه، فيُدركه في ذاته. وصوت الله يُستعلَن قوياً في المرة الأولى، وفي المرة الثانية يُستعلَن أضعف، وفي المرة الثالثة إذا أراد الإنسان أن يستزيده يُستعلَن ولكن بصوت أضعف، وفي المرة الرابعة يكاد أن يكون صوتاً خافتاً غير مسموع، ولكن بعد ذلك لن يسمعه.

وصوت الله يأتي واضحاً لا لَبْسَ فيه ولا إبهام، واضحاً وضوح الشمس. ولكن الإنسان هو الذي يخفيه تحت طيَّات من التسويف والعجز وعدم المناسبة. قد يردُّ عليه - ليس عن اتضاع - بقوله: "أنا ما زلتُ صغيراً"، أو "أنا أذهب وأتمتع بالعالم وأفرح". عندنا ترنيمة جميلة عن الملاك حينما يأتي ليأخذ روح إنسان، كان الأب الراهب الطيب "أبونا أندراوس" في دير الأنبا صموئيل يُرنِّمها بصوت ملائكي ويقول: "جه الملاك بقى يقول له تعالَ خلاص دي ساعتك، وساعة غيرك هي اللي جايَّة. فقال له الإنسان: لا، أنا صغير وسيبني شوية أتمتع بالدنيا. قال له: ما بِدَّهَاش (أي لا فائدة)، دي خلاص آخر ساعة، قوم بقى لِمّ عزالك، إخواتك كلهم سلِّموا، وفاضل إنت قوم سلِّم".

هي ترنيمة مُبكية، ولكنها تُظهر أن صوت الله حينما يأتي للإنسان، فإذا كان مستعدّاً يبتهج ويفرح جداً، أما إذا كان غير مستعد فيُحاول أن يُراوغ، أي يُقلِّل من الصوت الإلهي إلى أن يختفي. ولكن المسئولية ضخمة، وستظل ضخمة على كل مَن سمع صوت الله. المسئولية كبيرة جداً مُلقاة على نفس أحسَّت بالله وعرفته. المسيح تلْمَذَ ١٢ تلميذاً وقال لهم: «اذهبوا وتَلْمِذوا جميع الأُمم». فالمسئولية كبيرة على كل مَن سمع صوت الله، فهو مسئول أن يقوم ويُقدِّم ويمشي في الطريق.

• **المندوبة: يعني هل سيفيق العالم؟**

- نعم، سيفيق، ولكن عندما نفيق نحن. لو أفاق العالم قَبْلَنا ستكون إفاقة خطأ. لابد أن يكون هناك أُناس قد أفاقوا ومستعدُّون للبذل والتضحية حتى الموت. حينئذ يفيق العالم لأنه وجد مَن يمسك بيده ليفيق اليوم. الله بدأ حركة إفاقة العالم، ولكن إن لم يكن مقابلها أشخاص مسئولون مستعدُّون للبذل والفداء، مستعدُّون أن يُشبعوا القلوب الجائعة بدلاً من الأفيون والماريجوانا، فإن لم نكن بقادرين أن نعزِّيهم بالروح القدس فسيرجعوا للمخدرات بقوة أكثر.

• **المندوبة: هل ممكن، يا أبونا، أن يتجه الواحد في اتجاه الله ويعرف الله بدون أن يدخل ديراً؟**

- طبعاً. إن الروح القدس يعمل الآن في بيوت بعيدة عن الكنيسة، وليس فقط بعيدة عن الدير. ولكن الروح وديع ومتواضع، ولم يضع نفسه تحت وصاية أحد، فالروح القدس حرٌّ. لقد خطف الروح القدس فيلبُّس الشماس وأركبه السحابة وأنزله لملاقاة الخصيّ وزير كنداكة ملكة الحبشة، وقال له: "اذهب وكلِّمه وبشِّره". ولم يكن هذا الخصيّ يعرف شيئاً، ولكن لمَّا انفتح قلبه لله، اضطر السماء أن تبعث بقوة تحمل فيلبُّس إلى غزة لكي يُقابل هذا الخصيّ في الطريق، ويُعلِّمه عن المسيح، ويُعمِّده. فالروح القدس حرٌّ، وكل مَن يولَد من الروح القدس يصير حرّاً.

• **المندوبة: وهل يمكن لأي واحد أن يخدم الله دون أن يوجد في دير؟**

- طبعاً، هذا لا شكَّ فيه. وحتى الساكنون في الدير مسئولون عن الذين لم يأتوا إلينا، لابد أن تكبر مسئوليتنا وتمتد حتى تشمل الذين لا يريدون أن يأتوا إلينا، وهذا ما نطلب من أجله ونفتح قلوبنا له.

● **المندوبة: أنا شاكرة جداً. وأسأل الله أن يُرتِّب زيارة أخرى لكم.**

- الرب يكون معكِ ويُباركِ ويجعلكِ واسطة لنقل كلمات الحياة من مكانٍ إلى مكان.

الحديث الثاني

حديث الأب متى المسكين مع الأب عمانويل لان Emmanuel Lanne من دير شيفتوني ببلجيكا صباح الأربعاء ٢٤ / ١١ / ١٩٧٦

• والأب عمانويل لان هو راهب من دير شيفتوني ببلجيكا، وهو من الشخصيات المسكونية البارزة، وقد اشترك على مدى عشرات السنوات في الحوار المسكوني بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة القبطية الأرثوذكسية، وكذلك الحوار مع الكنائس الأرثوذكسية البيزنطية ومع الكنيسة الأنجليكانية. وهو عالم متخصص في اللغة القبطية الصعيدية، وقد نشر بها عدة مخطوطات قديمة مثل: مخطوط "خولاجي الدير الأبيض" (١٩٥٨)، وشذرات من نص قديم للقداس الباسيلي (١٩٦٠). وهو في نفس الوقت لاهوتي مُتمكِّن ورجل صلاة. ويُقال إنه هو الذي أثـّر على البابا السابق بولس السادس لتغيير نظرة الكنيسة الكاثوليكية للكنائس الأخرى، واعتبارها "كنائس شقيقة" بعد أن كانت مُعتَبَرة فيما مضى "كنائس منشقة". وجدير بالذكر أنه استمر على مدى ٣٢ سنة يزور سنوياً الكنيسة القبطية ويقضي عدة أسابيع في كل سنة بأديرتها – وعلى الخصوص بدير القديس أنبا مقار – للاعتكاف والصلاة. وقد بلغ من العمر الآن ٨٦ سنة، وقد كان عمره أثناء الحديث الذي ننشره ٥٣ سنة.

وهذا الحديث لم يُنشر من قبل.

منهج التعليم
عند الأب الروحي

حديث الأب متى المسكين:

إننا سنتكلم عن موضوع من أهم ما يمكن في حياتنا الرهبانية، وهو تسليم الحياة الروحية من الأب الروحي إلى أبنائه الروحيين؛ أو بمعنى آخر التلمذة الروحية. ولو أنني دائماً أميل إلى اعتبار الأُبوَّة الروحية والبنوَّة الروحية أكثر من التلمذة.

✞ لأني لم أدخل الرهبنة كأني إنسان يحترف الرهبنة، ولكني دخلتُ إليها كإنسان بسيط يريد أن يحيا حياة روحية أصيلة مع المسيح، وجدتها في الإنجيل وفي بعض الأقوال للآباء الكبار كنتُ أعيش بها، لذلك استطعت أن أسلِّم هذه الحياة الروحية الأصيلة للآخرين.

✞ وهنا يجب في البداية أن أقرر حقيقة هامة، وهي أنني أعتمد أساساً في تسليم الآخرين على الروح وليس على القانون والنظام. والروح يتمشَّى دائماً مع الحرية، لأنه بدون حرية لا يستطيع الروح أن ينشط بل يظل مكتوماً. فأنا لا ألجأ إلى القانون أو النظام إلا حينما يخرج الشخص عن الطريق الروحي السليم، فأُرجعه بالقانون والنظام. وقد انعكست هذه النظرة الروحية على الرهبان أنفسهم. فالراهب المبتدئ يشعر منذ أول أيامه في الدير أن عليه أن يسلك بالروح، وأن الحرية مُعطاة له ليسلك بالروح. فإذا انحرف فيكون عليه أن يدخل تحت القانون. فأنا ألجأ إلى القانون أو النظام فقط حينما يخرج الشخص أو مجموعة من

الأشخاص أو المجمع كله عن المنهج الروحي السليم.

✞ وبهذه الحرية الروحية قد صار مجمعنا تسوسه المحبة والروحانية، فتدفعه إلى الأمام وتُحدِّد معالمه بطريقة أفضل وأقوى من أي قانون رهباني دقيق.

✞ والمعجزة التي حصلت بيننا، هي أن هذا المنهج الروحي تأصَّل في مجمعنا لدرجة أنه إذا وُجد بيننا أي شخص يحاول أن يُقلل من محبتنا، أو يخرج بالحرية خارج الحدود الروحية السليمة، فإنَّ الجماعة نفسها تردعه وتوقفه عند حدِّه دون أن يتدخل الأب.

✞ ولكني لا أستطيع أن أقول إن جميع الرهبان نجحوا ١٠٠٪ في التوفيق بين الحرية المعطاة لهم والحياة الروحية السليمة. غير أن الذين أخفقوا هم استثناءات لابد منها، وقد صاروا بذلك مثلاً للإخفاق. ولكني أستطيع أن أقول إنهم أقلية صغيرة جداً. فمثلاً من المجموعة الأولى التي بدأتُ بها (١٠-١٢ راهباً) لم يتخلَّف عن بلوغ هذا الحد من الحرية الروحية إلا راهب أو اثنين فقط.

✞ والآن يجب أن أنتقل إلى كيفية تسليم هذه الحياة الروحية من الأب إلى أبنائه. وإن كان جلوسي مع الجماعة مهماً، لكن جلوسي مع كل شخص على حدة أهم جداً.

✞ كلامي أمام الجماعة لا يؤخذ من الجميع بنفس الدرجة، وذلك بسبب اختلاف القدرة على التأثُّر بالكلام، واختلاف الاحتياج من شخص إلى آخر، واختلاف الطباع والصفات النفسية. ولذلك فالكلام العام لا يُنشئ وحدة في الجماعة، بل على العكس، إنه يُنشئ تبايناً أكثر.

✞ أما في كلامي مع الشخص، فإني أستطيع أن أُعطيه ما يُناسبه وما يُعالج نقائصه، فأرفع منه النواحي السلبية التي تُنشئ الفوارق

والاختلافات في وسط الجماعة، لأن الذي يُفرِّقنا هو الجزء السلبي الموجود فينا. وهكذا بالتوجيه الفردي أستطيع أن أوصِّل الجماعة كلها إلى الوحدة الروحية والتوافق، أفضل من التوجيه الجماعي.

✞ والآن يجب أن أنتقل إلى توجيهي الفردي لكل شخص، وهذا التوجيه يُشكِّل عبئاً كبيراً للأب الروحي.

✞ إنني أولاً أواجه طباعاً وصفات متباينة جداً في الجسد والنفس. فهناك مَن هو مريض أو ضعيف جسدياً، وهناك مَن هو متكامل في الصحة الجسدية. هناك مَن يأتي بنفس ناقصة أو مريضة بسبب نقص في تربية البيت، وهناك مَن تكون نفسه سليمة ومتكاملة. هناك مَن تكون نفسه بها شهوات مختلفة، وهناك مَن تكون نفسه منطوية على ذاتها مائلة للعزلة المريضة، أو مَن تكون نفسه تحب الضحك والكلام والاجتماع بالآخرين. على أني قد أُعطيتُ من الله أن أحترم جداً كل نفس مهما كانت عيوبها ومهما كانت خاطئة. ربما ييأس الشخص من نفسه، ولكني أنا لا أيأس أبداً من أي نفس مهما كانت عيوبها، بل أعتبر دائماً أنه يمكن تقويمها.

✞ إن الجسد السليم هو قاعدة جيدة للنفس السليمة، والعكس صحيح؛ كذلك فإن النفس السليمة تكون قاعدة سليمة للروح المنطلقة النامية. ولذلك فيكون عليَّ أولاً أن أعالج عيوب الجسد وعيوب النفس.

✞ إنني أعالج الجسد بالأكل والشرب ومقدار الخروج والتعرُّض للشمس والهواء والعمل أو الراحة، وأخيراً بالأدوية. فمثلاً حينما يُقابلني الراهب المبتدئ لأول مرة، أحاول أن أعرف أمراضه الجسمية، وأنواع الأكل التي يحبها والتي لا يحبها، وأنواع الرياضة الجسدية التي كان يُقبل عليها والتي لا يُقبل عليها وأسباب ذلك، وأحدِّد له بناءً على

ذلك مقدار الأكل من حيث النوع والكمية والمواعيد، ومقدار خروجه وتعرُّضه للشمس والهواء... إلخ.

✞ ثم يأتي دور النفس، وهنا يكون العبء الأكبر، فإنه عليَّ أن أُقوِّم عيوب النفس، عيوب الذات البشرية. أن أُقوِّم طريقة التفكير وفلسفة الحياة. وإن كنت أنجح في ذلك، فلأني لا أُعطي أفكاري أو فلسفة مأخوذة من الكتب؛ بل أُعطي الفكر الإنجيلي كما استلمته من الإنجيل وعشتُ به، ولا أُسلِّمه للآخرين بالتعليم المنهجي؛ بل في الحديث العادي مع الشخص في الكلام البسيط دون أن يدري، في ملاطفتي للآباء مرة، وفي التأديب والتوبيخ مرة أخرى.

✞ **العمل، العمل، العمل**، هو أفضل وسيلة لتقويم النفس ولكشف عيوبها. إنني أبدأ بإعطاء عمل سهل في مكان هادئ يأخذ ساعات قليلة من النهار. وبعد ذلك أزيد عدد ساعات العمل، ثم أُعطي عملاً أصعب. وبعد ذلك أُعطي عملاً أصعب بكثير يكاد يفوق الطاقة، ثم أُعطي عملاً لا يُحتمل. وفي كل هذه المراحل تنكشف النفس وتنكشف عيوبها. الراهب يبدأ يشكو بأن العمل ثقيل وبأنه لا يستطيع أن يصلِّي، وبأنه لا يستطيع أن يُتمِّم ما جاء من أجله. ومع أني أحترم جداً كل نفس إلاَّ أن هذا الصراخ يقف عند أُذنيَّ فقط ولا يصل إلى قلبي إلى أن تنكشف النفس وأضع يدي على عيوبها، وأبدأ أُعالج هذه العيوب مع الشخص، مرة بالتقويم، ومرة بالتأديب؛ مرة بالنصيحة، ومرة بالردع، وقليلا قليلاً تتخلَّص النفس من عيوبها.

✞ ومتى تخلَّصت النفس من عيوبها فإن الروح تبدأ تنطلق في الصلاة المستمرة بحب لا ينقطع، ويصبح الشخص نفسه الذي كان يشكو من شدة العمل ومن أن العمل يعوق حياته الروحية، هذا

الشخص عينه بعد أن تتخلَّص نفسه من عيوبها، يصبح متأجِّجاً بالحب الإلهي، وتنطلق الصلاة من قلبه دون عائق طول مدة العمل؛ وذلك لأن الروح صارت حرة من القيود التي كانت تعوق انطلاقها. كذلك نفس الشخص الذي كان يشكو من جسده، وأنه يُشكِّل عائقاً يمنعه من حرية العبادة، هو بعينه متى عولجت عيوبه الجسدية والنفسية، تنطلق روحه في العبادة الحارة.

✞ وهنا يجب أن أقرر حقيقة مهمة، وهي أن الشخص العلماني المبتدئ الذي يقرع باب الدير طالباً أن يترهبن، يكون مُحمَّلاً بطاقة روحية عالية جداً، يكون ناسكاً من الدرجة الأولى، ويكون قلبه ممتلئاً بالحب إلى درجة العشق.

✞ هذه هي حالة الراهب في أول أيام رهبنته، ولكن منذ اليوم الثاني حينما ينزل إلى العمل ويتصادم مع واقع نفسه، تتبخر منه كل هذه الحرارة الروحية العالية، فيرتبك الراهب لأنه لا يرى في نفسه الحرارة التي جاء بها إلى الدير، وبإيعاز من الشيطان يبدأ يتشكك في صحة الطريق الذي دخل إليه. ولكن السبب معروف لديَّ، وهو أنه لما دخل الحياة العملية، تصادَم مع عيوب نفسه وثِقَل جسده، فصارت عيوب الجسد والنفس تمنع روحه من أن تنطلق بحرية كما كان يريد في أول يوم.

✞ حينئذ يكون عليه أن يدخل في مرحلة التقويم، ويجتاز أياماً مُرة من التأديب والتوبيخ وكشف العيوب والتوبة، إلى أن تتقوَّم نفسه وتتحرر من عيوبها بعد سنة أو بعد عشر سنوات. وحينئذ تصبح روحه حُرة مما كان يُقيِّدها ويمنع انطلاقها.

✞ حينئذ يستعيد الراهب حرارته الأولى التي دخل بها الدير في أول يوم بكل ما فيه من طاقة روحية ومحبة متأجِّجة، وبدون أن يعوقه شيء

فيما بعد. وما كان يرجوه مجرد رجاء، ويتأمله مجرد تأمل، يصبح حقيقة وواقعاً وسيرة.

✞ والوصول إلى هذه الحرارة الروحية المستمرة التي لا تتوقف هو غاية الحياة الرهبانية، لأنه من السهل أن نمارس القداسة إلى حين، ومن المتيسِّر لكل واحد أن يكون حاراً بالروح في بعض اللحظات؛ ولكن الغاية التي تهدف إليها الحياة الرهبانية، هي أن نعيش في القداسة بلا انقطاع، وأن نقتني الحرارة الروحية التي لا تتوقف أبداً في أية لحظة.

✞ وبهذا أكون قد رسمتُ منهج حياتنا الرهبانية من البداية إلى النهاية.

✞ هذا هو المنهج العام، ولكن يجب أن أقول إنه توجد استثناءات. فالروح لا يخضع للمناهج، فقد يختزل الروح المراحل، ويختزل الوقت، ويجعل الشخص المبتدئ يمتلئ بالحب الإلهي منذ أيامه الأولى. والحب الإلهي شافي لكل العيوب. الحب الإلهي خير معلِّم وخير طبيب، وهو يُظهِر للراهب عيوبه سريعاً، ويشفيها أولاً بأول، بل يجعلها تحترق سريعاً أمام ناره المُطهِّرة. وهكذا الحب الإلهي قد يختزل السنين الكثيرة، ليس فقط إلى شهور قليلة، بل ربما إلى أيام قليلة، فيبلغ الراهب إلى حرية الروح، وتحترق عيوبه بالحب أولاً بأول.

✞ لذلك، فالحب الإلهي يُسهِّل مهمة الأب الروحي كثيراً جداً.

✞ ولذلك أبدأ دائماً أكلِّم الشخص المبتدئ عن حب الله حتى أكتسب هذه الطاقة الهائلة في صفِّي، فتسهل مهمتي.

✞ أحاول دائماً أن أُنشِّط المحبة الروحية في قلب المبتدئ. وهو يوافقني، لأنه يحس أن هذا الحب هو الذي أتى به إلى الدير. ولكن في نفس الوقت، يشعر أنه غير قادر أن يسلك في هذا الحب، وفي هذه

الحرارة الروحية على الدوام، وذلك بسبب ثقل جسده وعيوب نفسه التي تعوقه؛ فيدخل في صراع داخلي ضد نفسه، لأنه يشعر أنها هي التي تمنعه من أن يتقدَّم في الحب. وهكذا، قليلاً قليلاً، يتحرر من نفسه، فيدخل إلى الحرارة الروحية الدائمة.

✞ وهكذا، بالإرشاد الفردي، يتحرر كل راهب من الجزء السلبي الموجود فيه، وبهذا تصل الجماعة إلى وحدة الروح، لأن العوامل السلبية الموجودة في كل فرد هي التي تمنع الجماعة من أن تصل إلى الوحدة الروحية. هذا الكلام يبدو نظرياً، ولكني سأُوضِّحه بمثال عملي:

✞ تعمل مجموعة من الرهبان (٥ أو ٧) في مطبخ الدير. وكل منهم يرسل في كراس اعترافه تقريره عن عمله في كل يوم مع العيوب التي اكتشفها في نفسه ومقدار نجاحه أو فشله. يكتب في صفحة ويترك صفحة بيضاء للإجابة، يكتب في بساطة وإخلاص أمام الله، وأنا أجيب. ربما كلمة واحدة كتبها في وسط الكلام دون أن يدري، أُعلِّق أنا عليها بصفحة كاملة. في البداية يظهر من الكراريس أن هذه المجموعة متباينة جداً. فهناك مَن يستشير، وهناك مَن لا يستشير ويعمل من تلقاء نفسه، وهناك مَن يُلقي العبء على غيره، وهناك مَن يأمر الآخرين؛ وهكذا تظهر المجموعة مُفكَّكة. ولكن بعد مدة من الإرشاد ومعالجة العيوب، مرة بالنصيحة، ومرة بالتوبيخ؛ يتخلَّص كل فرد من الجزء السلبي الذي كان يُعوِّق علاقته بالآخرين. وتبدأ المجموعة تعمل بروح واحدة في هدوء، ويصير العمل على أعلى مستوى من الكفاءة.

✞ وهكذا استطاع الروح، قليلاً قليلاً، أن يوحِّد الأفراد الذين يعملون في كل مجموعة صغيرة، ثم أن يُوحِّد المجموعات الصغيرة بعضها ببعض في تآلف وتوافق روحيَّيْن، حتى صار الدير كله وحدة روحية

واحدة. ولكن هذه العملية قد استغرقت سنوات عديدة.

أسئلة من الأب عمانويل لان، والإجابة عليها من الأب متى المسكين:

● سؤال: نحن في الغرب عموماً، وفي دير شيفتوني على الخصوص، نواجه صعوبات تعوق الراهب في حياته الروحية، أذكر منها ثلاثاً:

أ - خدمة الكنيسة.

ب - الدراسة الفكرية وعلاقتها بالتقدُّم الروحي La formation intellectuelle et la formation spirituelle.

ج - التمسُّك بالشكليات الرهبانية والفنون، مثل: الإيقونات، وغيرها. ومحاولة تقليد أشكال رهبانية (مثل الرهبنة الروسية) تقليداً خارجياً في المظاهر والشكليات Esthéticisme.

❖ الجواب: إن الخطر الأول الذي ذكرته، هو بدون شك أخطر بكثير من الاثنين الآخرين. الخدمة الكنسية تُشكِّل أكبر خطر يمكن أن تتعرَّض له حياة الراهب الروحية، وهي كفيلة بأن تقضي على حياته الروحية نهائياً. وسبب هذه الخطورة أن الراهب الذي يأخذ مركزاً في الكنيسة، قبل أن ينضج في حياته الروحية نضوجاً كاملاً مشهوداً له من مجمعه كله، يأخذ في الواقع وضعاً أعلى من قامته، فهو يتقمص شخصية أعلى من شخصيته، تُبعده عن بساطته الرهبانية وتواضعه ومحبته للمتكأ الأخير.

الراهب الذي يقف في وسط الشعب ويرفع صوته ويُضخِّمه بنوع من العظمة، يأخذ في الواقع مكان الله، وهو بذلك يقع في خطية آدم بأن يريد أن يكون مساوياً لله.

إنه شيء مؤسف جداً أن تكون طقوس الكنيسة، سواء كان في الغرب أو في الشرق، وعلى الخصوص عند البيزنطيين، قد اصطبغت بعظمة كاذبة، هي في الواقع موروثة من ملوكية بائدة.

فالتيجان الذهبية، وتضخيم الصوت بنوع من العظمة، ليست موروثة من المسيح أو من الرسل بأي حال من الأحوال. فالمسيح كان وديعاً ومتواضع القلب، يلبس سيوراً في قدميه، وثوباً بسيطاً، ورأساً عارياً، لا يصيح ولا يُخاصم ولا يرفع صوته. وبولس الرسول يقول عن نفسه إنه «في الحضرة ذليل» (٢كو ١٠: ١)، فمن أين ورثنا هذه العظمة التي اصطبغت بها طقوس الكنيسة؟ إن العالم والعلمانيين يشمئزون من هذه العظمة الكاذبة، لأن العالم قام بثورات عديدة ضد الملوكية مثل الثورة الفرنسية التي قامت بقتل الملك والأمراء تعبيراً عن الرغبة في التحرُّر من العظمة الكاذبة. كذلك فإن أي رئيس دولة في الزمان الحاضر يكون عظيماً في نظر نفسه، يُبغضه الشعب.

فإن كان العلمانيون يُبغضون هذه العظمة الكاذبة، فكم بالحري ينبغي أن نبغضها نحن الرهبان، نحن الذين نقف أمام الله شاعرين أننا تراب ورماد، وطالبين أن نقف في الموضع الأخير في الكنيسة؟

لستُ أقصد بذلك أننا يجب أن نثور على الطقس ونُغيِّره، أبداً. فأنا بصفتي راهباً، أحترم جداً كل طقس في الكنيسة وأخضع له مُطيعاً، ولكن ما أقصده هو أن نتحرر داخلياً من هذه العظمة، فنقف في الكنيسة ونحن شاعرون بالحق أننا تراب ورماد أمام الله.

ويقيناً، إن كنَّا نحن الرهبان نبغض هذه العظمة الشكلية التي لوَّثت طقوس الكنيسة، فلابد أن تتغيَّر الأشكال الخارجية من تلقاء نفسها يوماً من الأيام.

❖ **أما بخصوص الدراسة الفكرية وعلاقتها بالتكوين الروحي:**

هنا أيضاً لا أتكلَّم كلاماً نظرياً، ولكن أتكلَّم من واقع خبرتي. فبحسب خبرتي الشخصية أستطيع أن أُقرر أن الدراسات الفكرية لا تُشكِّل خطراً على الإطلاق على الحياة الروحية، حينما يكون الراهب قد بدأ أولاً بأن يتعمَّق في الحياة الروحية. فأنا لما دخلت الدير كنتُ أُعتَبَر عديم العلم من الناحية الفكرية أو الفلسفية، فكل علمي كان في الطب والصيدلة. ومكثت سنوات عديدة لا أقرأ إلاَّ الإنجيل وأقوال قليلة من الآباء الكبار، كنتُ آخذها لأعيش بها. فلما تعمَّقتُ في الروح، بدأتُ أقرأ في اللاهوت والفلسفة وكافة الدراسات الأخرى، فوجدتُ نفسي أستوعب بسهولة كبيرة وأُميِّز بسرعة الصواب من الخطأ، ذلك لأن روحي صارت نشيطة، فصار لها إحساس تلقائي بالحق وأين يوجد. وهكذا أزاد تكويني الروحي السابق من قدرتي على الدراسة الفكرية، كما أنه جعل الدراسة الفكرية لا تضرُّ حياتي الروحية.

والآن، السؤال الذي يجب أن نسأله، هو كما يلي:

- **هل نبدأ بالدراسات العلمية، ثم نتعمَّق في الحياة الروحية بعد ذلك؟**

- **أم نبدأ بالحياة الروحية السليمة العميقة، ثم نُقْبِل بعد ذلك على الدراسات الفكرية؟**

❖ **أما بخصوص التمسُّك بشكليات الرهبنة وتقليد أنظمة رهبانية أخرى تقليداً خارجياً:**

أقول: إن هناك مبدأً أساسياً في حياتي الرهبانية أقوله باستمرار وأُكرره للرهبان، هو أنه ينبغي أن تكون الحياة الروحية أصيلة original (authentique).

فالله خلقني، أنا متى المسكين، لأكون متى المسكين، وليس لأكون صورة لأنطونيوس أو مقاريوس أو باخوميوس. إنني أحب القديسين، وألتقط من كل واحد منهم ما يفيد حياتي الروحية، ولكني لستُ أتقمَّص شخصية غير شخصيتي بأي حال من الأحوال. لأن المسيح خلقني ليُحقق فيَّ صورة جميلة معيَّنة موجودة في ذهنه عني. فأنا عندما لا أُحقِّقها، بل أتقمَّص شخصية غيري، أكون بذلك قد خرجتُ عن قصد المسيح فيَّ. الشيء الوحيد الذي يهمني، هو أن تكون علاقتي بالمسيح علاقة حقيقية صادقة أصيلة غير مفتعلة ولا منقولة من شخص آخر.

• سؤال: لقد قلتم إنه لما كان العدد قليلاً، كنتم تستطيعون أن تتابعوا كل راهب متابعة شخصية في مكان عمله؛ ولكن لما زاد العدد حتى وصل حالياً إلى ٦٠، بدأتم تستعملون كراريس الاعتراف. ولكن سيأتي يوم يزداد فيه عدد الرهبان عن إمكانية أب روحي واحد مهما كانت وسائل الإرشاد المستعملة. فكيف يمكن تكوين أب روحي جديد ليُساعد الأب في مهمته، أو ليخلفه، أو ليبدأ منشآت رهبانية جديدة؟

❖ الجواب: هذا السؤال داخل في اعتبارنا، ولو أنه لا يقلقنا، لأنه يختص بالله أكثر مما يختص بنا. صِدْق منهجنا الروحي سيتحقَّق بظهور آباء روحيين جُدُد من وسط الجماعة. فالأب الروحي الناجح لا يبقى وحده أباً، وكل تلاميذه أبناءً، بل يظهر من وسط أبنائه مَن يصيرون آباء روحيين. ولكن هذا الأمر يقوم به الله، وليس نحن.

قلتُ إنني لا أهتم بهذا الأمر، لأن الله هو الذي بدأ يقود حياتي منذ أول لحظة، وأنا متيقِّن تماماً أن ما نعمله هو من الله وليس منا. لذلك فلابد أنه هو أيضاً سيقوم بتدبير المستقبل كما قام بتدبير الماضي. لابد أنه سينشأ في وسط الجماعة آباء جُدُد لكل منهم طابعه الخاص.

فالموضوع هو أن ننتظر نشوء آباء جُدُد، وليس أن نعمل على تنشئة هؤلاء الآباء. فنشوء هؤلاء الآباء سيأتي من الله كختم على صدق منهجنا الروحي. فأنا لا أستطيع أن أفتعله.

وهذا نراه واضحاً جداً في حياة مقاريوس. إنه موجود أيضاً في حياة القديسين الآخرين، مثل: أنطونيوس، وباخوميوس، وغيرهم، ولكنه أوضح جداً في حياة مقاريوس. فقد ظهر من تلاميذ مقاريوس آباء جدد، مثل: يوحنا القصير، وبيشوي، وبافنوتيوس، وإيسيذوروس، ومقاريوس الإسكندري، وكان لكل منهم مزاج روحي معين. فمثلاً مقاريوس الإسكندري كان يتميَّز بطبعه الحار، ويوحنا القصير بهدوئه ووداعته، وهكذا كان لكل منهم شخصية روحية محددة.

ولكن مقاريوس لم يعمل شيئاً ليُنشئ هؤلاء الآباء الجدد، بل ولا حتى أوصى عند موته أن يتبع الرهبان أحد هؤلاء من بعده، ولكن ظهورهم في وسط الجماعة جاء من الله كختم وشهادة على نجاح رسالة مقاريوس وعلى صِدْق منهجه الروحي.

الحديث الثالث

أدار الحديث عام ١٩٧٨ باحث علمي يُحضِّر رسالة دكتوراه
عن قدس الأب القمص متى المسكين
وقد سبق نشر هذا الحديث في مجلة مرقس،
أعداد: سبتمبر، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر سنة ٢٠٠٦

- ١ -

الروح الوطنية والحياة الرهبانية

وطنيته:

• سؤال: هل اعتزالكم العالم يجعلكم تحسون أنكم غير مرتبطين بمصر ومشاكل مصر؟ (عبد الناصر: حرب ٥٦، ٦٧؛ السادات حرب ٧٣).

- في الحقيقة كان نشاطي في هذه الأمور كبيراً وخطيراً أكثر بكثير مما قدَّمه السادة العلمانيون المعنيون أصلاً بهذه الأمور ليعبِّروا عن الأقباط عامة.

بدأتُ وأنا راهب نشاطي الوطني بالفعل سنة ١٩٥٥-١٩٥٦ قبل وأثناء الحرب، إذ كنت وكيلاً لبطريركية الإسكندرية ونـزلتُ للقاهرة، وعقدتُ اجتماعاً لأُمناء فروع مدارس الأحد، وذلك في مُدرَّج الكلية الإكليريكية، وتكلَّمتُ عن ضرورة تطوُّع الشباب القبطي بصورة صادقة للمحاربة في حرب التحرير ضد الإنجليز، والانخراط في الجيش كمتطوعين أثناء حرب بورسعيد.

ولا أنسى أني في فترة ما من حياتي (ربما ١٩٦٢)، ازداد شعوري جداً بالظلم الذي يُعانيه الفلسطينيون وفكَّرتُ جدياً أن ألتحق بمنظمة التحرير الفلسطينية لأعمل في صفوفها في فرقة الإنقاذ كصيدلي، خصوصاً بعد أن سمعتُ أن طبيباً مصرياً كان يُقيم في الجزائر التحق

بالمنظمة وصار عضواً فعّالاً فيها.

لقد كنتُ طوال حياتي أنحاز للمظلوم وأكون على استعداد تام لتحمُّل مسئولية الدفاع عنه مهما كلَّفني ذلك، وبالفعل قد كلَّفني هذا الشعور وهذا السلوك معاناة كثيرة لا حصر لها، أُعاني منها حتى الآن، لأني وقفتُ في صف المظلومين في وجه الرؤساء.

ثم في حرب ١٩٦٧، وكنت وقتها في وادي الريان مع الرهبان واستيقظتُ في الصباح على رجَّة شديدة في الجبل (ارتفاع ٤٠ متراً وهو مسطح المغارة)، لمدة تزيد على نصف ساعة، وإذا بي أُفاجأ بأسراب طائرات فوق رأسي. توجَّستُ خيفة، وعند المساء حضر بعض الأعراب وأخبرونا أن الحرب بدأت، واستلفتُ منهم راديو صغير واستمعت للإذاعة وحزنت حزناً مريراً جداً أمرضني، عندما كنتُ أستمع إلى وقائع الانهزام وعودة الجند عراة وتنحِّي جمال عبد الناصر. لم أطق الموقف وجمعتُ الرهبان وألقيت بينهم محاضرة أشرح فيها أسباب هذه الهزيمة. وكتبتُ أول كتاب نزل من المطابع بعد الهزيمة باسم "ما وراء خط النار". الحرب وقعت في ٥ يونيه والكتاب خرج من المطبعة في ٢٠ يونيه - ولكن كُتب عليه خطأ يولية - وأرسلتُ نسخة للرئيس جمال عبد الناصر باليد وتقبَّلها وأرسل لي خطاب شكر وامتنان.

ولكن الأهم من ذلك كله، فإني منذ قيام الثورة وأنا أُنادي بضرورة الانضمام إلى رَكْب العمل الوطني وعدم التخلُّف عن المناداة بالاشتراكية (التي كانت سائدة آنذاك).

وإزاء هذا الخطر، كتبتُ ٧ مقالات في جريدة وطني بعنوان: "الاشتراكية من وجهة نظر مسيحية"، كان لها أثر كبير لدى المسئولين.

وكنتُ أكتب تباعاً المقالة الافتتاحية لمجلة مرقس، أُعلِّق على الأحداث

الهامة في وقتها وحتى إلى اليوم. فقد كتبتُ آخر مقالة لي عن "معاهدة كامب دافيد" في افتتاحية مجلة مرقس، وهذه طُبِعَت أيضاً بمفردها ووُزِّع منها ٢٠ ألف نسخة. وعنوان المقال: "الوزن الروحي لمبادرة القدس ومؤتمر كامب دافيد".

وأنا لمَّا أكتب في الأمور الوطنية أكتب بروح الأقباط وبحاسة وطنية روحية، أرتفع بمستوى الأحداث ومستوى القارئ إلى هدف أعلى وإلى سلوك وطني مخلص لمنفعة الأمة كلها، وبالتالي الأقباط.

وللعلم، كان أقباط مصر في أوائل القرن العشرين في حزب سعد زغلول وحزب الوفد، يمثِّلون عقل الحزب الروحي وشجاعته، والأسخياء منهم كانوا هم الذين يُموِّلون الحزب بالمال.

وقد حدث أن كان سعد باشا راكباً في عربة حنطور وعن يمينه سينوت حنا باشا، في طريقهم في شارع البحر بالمنصورة. وكانت هناك تعليمات من الملك فؤاد بقتل سعد باشا، وفعلاً وأثناء الموكب تظاهر الجند راكبو الفرسان وحاملو السونكي كأنهم يحرسون العربة من يمين ومن يسار، وإذا بفارس جبان تقدَّم من جهة اليمين ورشق السونكي ليُصيب جانب سعد زغلول، فتلقَّاه سينوت حنا بصدره وخرَّ صريعاً في العربة أمام الشعب!

كان الأقباط يحسُّون أنهم أصحاب وطن عزيز، وأن دماءهم رخيصة لفدائه في أي موقع.

الدخول للرهبنة:

● **سؤال: ماذا كان تصوُّركم للرهبنة قبل معايشتها وبعدها؟**

- قبل أن أدخل الدير لم أكن قد رأيتُ رهباناً ولا حتى مطارنة إلاَّ

مرة واحدة مصادفة، ولكن كل ما عرفته عن الرهبنة كان بواسطة الذين أدمنوا زيارة الأديرة والبقاء فيها، وكانت صورة قاتمة غاية القتامة. لذلك كان خوف الأصدقاء عليَّ في محله في نظرهم، ولكني لم أرد إطلاقاً أن أنشغل بما هي الرهبنة وبمن هو الراهب قبل الذهاب إلى الأديرة، فالدعوة كانت تفوق حاسة المعايير المنطقية، وشعوري الوحيد الطاغي أني سأرى الله هناك وأعيش معه، وهو كفيل بأن يتعامل مع هذه المخلوقات والمرعبات. كنتُ إلى لحظات أُترك إلى تفكيري فكان يختل توازني وتدخلني الرعبة! ولكن في الحال كان الإحساس يتبدَّل، فأشعر أني ابتعدتُ عن مصدر سلامي ومصدر حبي وأمانيَّ وغايتي. فكنتُ أعود بسرعة إليه فأجده - أي الرب - قوَّة جبارة حيَّة بمعنى الكلمة للسلام وللحرب معاً.

وفي هذه الفترة دخلتُ في حلم عميق لاإرادي (أي في غير وقت النوم، وليس تحت ملابسات النائم العادي)، أي في رؤيا. وكان مضمونها أنه سيكون معي وسيملأني بقوة (لأنه نفخ في وجهي، فامتلأ جسمي في الحال حرارة وقدرة وبأساً)، وأنه سيؤمِّن لي الطريق (لأنه أعطاني بيده تذكرة سفر طويل، ولكنه حذَّرني أن الرحلة شاقة والسفر إلى سنين طويلة. لما ركبتُ القطار الذي عيَّنه لي لم أجد فيه في البداية ولا راكباً سواي، ولكن بعد قليل امتلأ القطار).

وتوالت الأحلام وكلها طويلة وعميقة ومشجِّعة، ولكن كان فيها عنصران متلازمان: المسئولية الخطيرة، والأتعاب المريرة. ولكن كان الله معي، وأهداني في أحد الأحلام خارطة للطريق، ولكنها خارطة ذات خاصية لها قدرة لتحديد الهدف وقدرة للخروج من المآزق المميتة.

وأنا بتركيبي الفكري والنفساني لا أومن بالأحلام لأني أقوم

بتحليلها إلى مكوِّناتها من معاناة وتأثير ما يتم في اليقظة في الباطن، ولكني أُسرُّ بها فقط وأجعلها خلف ظهري. ولم أَسِرْ في حياتي بدافع رؤيا أو مشورة إنسان أو بعَجَلة بدون يقين أو تأنٍّ. ولكن جميع أحلامي كانت تتحقق أمام عيني كل يوم وأندهش داخلياً. لذلك رجَّحتُ أن لا أكتب لك بالتفصيل لأني لا أزال أقطع مراحلها.

دخلتُ الرهبنة فوجدتها أسوأ مما بلغني من جميع الأصدقاء. بحسب الواقع الذي رأيته (ولكن لم أَعِشْه ولا عايشته)، رأيتها استرخاءً لكل قوى الإنسان، أو بمعنى أخطر: استقالة من الحياة الحاضرة، وبالتالي انفصالاً كلياً عن الواقع.

مناقضة:

يتهيَّأ للبعض بالفخر وبالافتخار بأن الرهبنة هي ترك العالم وشواغله وملاهيه وأباطيله مما يقودهم إلى محاولة إقناع الآخرين بأفضلية الرهبنة التي يُعْزونها إلى حقارة العالم. ولكن في نفس الوقت يرافق هذا التهيُّؤ اشتهاء العالم ومشاغله وملاهيه وأباطيله في داخل النفس سرّاً حيث يتحرق القلب وينهزم الوجدان أمام هذه الشهوة، لأن الحرمان والبعد مع الاشتهاء مع الحرمان، يجعل ما يشتهيه الإنسان يتضخم جداً ربما مائة ضعف، فيتهيَّأ للإنسان سرّاً وكأن العالم جنة وقد حرم الإنسان نفسه منها، هكذا يتصوَّر الإنسان بل يعيش بالعقل في تصوُّره. وهنا يكون التمزُّق والرياء، ومن هنا ينشأ الصراع الداخلي الذي يبدأ يشكِّل السلوك والفكر: إما ظاهرياً فيؤدي إلى المرض النفسي الواضح (شيزوفرينيا مكتسبة)، وإما داخلياً مكبوتاً فيؤدي إلى اختلال السلوك وتناقض الفكر وانهزام الوجدان إنما بصورة متدرجة حسب حالة كل واحد. وربما يكون هذا منظوراً جداً من الآخرين، أو قد يختفي

أمام جميع الناس وخاصة حينما يلوذ الراهب بالصمت الذي يفهمه الناس على أن هذه قداسة، أو التمسكن، أو المزاح واللطف الكثير... إلخ.

الرهبنة:

رأيتُ هذا وفحصته وقيَّمته منذ دخولي عتبة الدير، وبدأتُ أنتبه إليه جداً في نفسي، ولكني وجدتُ نفسي أعيش واقع الحياة الروحية منذ أول لحظة، وانشغالي الجاد بدراسة الكتاب المقدس على المستوى الروحي الذي كان يستغرق مني ٨ ساعات يومياً بلا انقطاع مع الاهتمام بالملخَّصات والجداول وترجمة أقوال الآباء عن الصلاة (٨٠٠ صفحة)، ثم التأمل الطويل فيما قرأتُ ودرستُ، جعلني كما تصوَّرتُ نفسي كأني في كل يوم أستعد لامتحان البكالوريوس غداً. كذلك اهتمامي بالعمل الجسداني من الاشتراك العام في غسيل وطبيخ وعجين وخبيز والاعتناء بحديقة الدير (التي أنشأتها بنفسي في نفس موضع مقلب الزبالة)؛ كل ذلك جعلني أضع لنفسي، ودون أن أدري، لمستقبل الرهبنة، الأصول السوية لحياة رهبانية سوية.

وعن خبرة ودراية شخصية لكيفية الحياة بالروح من واقع الإنجيل وممارسة ما يقوله الإنجيل بالفعل: «إن كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله. اهتموا بما فوق لا بما على الأرض» (كو ٣: ١،٢)، وضعتُ في قلبي أُسس الحياة الرهبانية، فلما صرتُ أباً ومسئولاً جعلتُ الانشغال بالروحيات والإنجيل وتحقيق روح القيامة في سلوكنا وكلامنا هو الأساس الأول، وبذلتُ أقصى جهدي لكشف كل ما ينير هذه الحياة ويجعلها فعلاً act وليست نظرية لاهوتية Theological theory عن العالم تُسبغ عليه أنه عالم الأباطيل ظلماً

وعدواناً. فوضعتُ مبادئ العمل والجهد بالفكر وبالسلوك إلى الحد الذي يتساوى فيه تماماً من جهة العمل أي عامل أو موظف في العالم مع أي راهب في الدير. فالعمل ٨ ساعات يومياً لقيادة العربات والجرارات والبولدوزر واللوري القلاب، وإدارة ماكينة الطباعة [(أحدث ما أنتجت مصانع ألمانيا - هايدلبرج)، وآلة الجمع التصويري بالعقل الالكتروني على شاشة تليفزيونية، وآلة التصوير والتحميض السريع للأوفست - يبلغ ثمنها حوالي مائة ألف دولار]، وإدارة ماكينات ري وكهرباء واستزراع ١٣٠٠ فدان بأنفسنا، ولا يعمل معنا إلا عمال مبتدئون.

إذن، فقد أخرجنا الخطأ فقط من العالم، ثم استحضرناه معنا إلى الدير لنُقدِّمه ذبيحة لله. وكل هذا يمشي جنباً إلى جنب، الروح مع الجسد، الأبدية مع الزمن، الهدف مع الطريق، القيامة مع الموت، العمل الروحي الخالص مع العمل الجسدي الخالص حيث يمكن أن يلتحم الواحد بالآخر بسيمفونية رائعة. فالروحيات تُضفي على الشغل الجسدي الحكمة والفهم والصبر والحب والمعاملة الأخوية الخالية من الغش، والعمل الجسدي يُضفي على الروحيات الجدية والإخلاص والمثابرة وصحة الرؤيا.

وباختصار، ما كان سبباً لإفساد الحياة الرهبانية وكان يتلخَّص في عاملين: الأول غياب جوهر الحياة الروحية برمته، والثاني التنكُّر للعمل - أي عمل - باعتباره عودة إلى عالم الأباطيل؛ حيث الأول أنشأ فساداً في الأخلاق والسلوك، والثاني أنشأ استقالة الشخصية الرهبانية من مسئولية العالم بكل معنى، فكان الصراع المؤدِّي إلى المرض النفسي. فهذا جعلني أنتبه جداً لهذين العاملين إذ:

(١) حقَّقتُ الحياة الروحية كفعل قائم بذاته،

(٢) وحقَّقتُ العمل الجسدي الإنساني بحد ذاته لأُعيد للشخصية هويتها الذاتية وأُجنِّبها المرض،

(٣) وأضفتُ على هذين، الانشغال بأعواز العالم سواء بالفكر الديني أو الفكر الوطني، فوضعتُ على كاهل الراهب الإحساس بالمسئولية العظمى تجاه العالم والكنيسة. فالدير يُصدر مجلة شهرية منذ ١٧ عاماً (عام ١٩٧٨) لخدمة الشباب روحياً، ويُصدر الكتب - ٤٠ كتاباً حتى الآن - وهي كلها كتب لبناء فكر الشباب روحياً واجتماعياً، ويصدر أحياناً مقالات في الشئون الوطنية ليُعبِّر عن رأي القبط في المواقف الخطيرة للوطن. هذا فضلاً عن استقبال الزائرين والحديث معهم أقباطاً ومسلمين وأجانب، والترحاب بهم وخدمتهم بفرح بدون تمييز، مما أثار دهشة المسئولين والمسلمين عامة، وخرج عن الدير سمعة ملأت مصر كلها، أن دير أنبا مقار لا يعرف التعصُّب وأنهم يحبون المسلمين!! وقد زارنا رئيس الإخوان المسلمين مرتين، وشيوخ ودكاترة من الأزهر.

- ٢ -

الكتاب المقدس، النفس المنطوية والنفس المنبسطة، الإرشاد الروحي وأب الاعتراف

دراسة الكتاب المقدس:

• سؤال: هل يمكن وصف "الشركة الروحية" مع قديسي الكتاب المقدس وصفاً تدريجياً وبالتفاصيل، وإعطاء مَثَل على أيٍّ من هذه الشخصيات التي تذكرونها؟ وما هو المقصود بالرؤيا العقلية؟ وكيف تربطون بينها وبين "الشركة الروحية"؟

- إن إيماني الذي لا يتزعزع أن تسجيل الوحي لأسماء شخصيات الكتاب المقدس وتقديم تفاصيل دقيقة للغاية عن حياتهم الشخصية وضعفاتهم وقوتهم وعلاقتهم بالله، هو أن هذا السرد القصصي مرتبط ارتباطاً أساسياً بحياتنا الشخصية وعلاقتنا بالله وانفتاح بصيرتنا لإدراك ما هي مشيئة الله نحونا. هذا الإيمان في الحقيقة هو نتيجة عملية وصلتُ إليها.

فبإخلاص التلميذ الصغير والضعيف جلستُ أمام الكتاب المقدس والدموع تملأ عينيَّ: كيف سأستوعب هذا الكتاب المقدس بعهديه وأنا هنا وحدي وفي دير مهجور مخرَّب لا يوجد به كتاب واحد يشرح لي ويُفهمني، ولا أب ولا أخ ولا مَنْ يجيب على أسئلتي؟ بهذه الروح المسكينة والمنسحقة فتحتُ الكتاب وبدأت أقرأ، ووضعتُ على نفسي

أن أكون مدقِّقاً في قراءتي، فاحصاً وباحثاً عن قصد الله من المكتوب ومني أنا، تماماً كما كنتُ أستذكر دروسي في المدرسة بكل إخلاص واهتمام بل وأكثر. وبالرغم من أني في كل أيام دراستي لم أسهر مرة واحدة الليل كله، إلاَّ أني ظللتُ في بدء رهبانيتي ولمدة سنة كاملة أسهر الليل كله.

فانفتح الكتاب المقدس أمامي وانفتح ذهني للكتاب، وبدأتْ أسرار الله تتسرَّب بهدوء إلى أعماق كياني كما يتغذَّى الطفل الرضيع. وقد أحسستُ أثناء القراءة أنه يحدث اتصال حقيقي سرِّي بالحوادث داخل قلبي.

فكان قلبي يتأثر، وبدأ التأثر يكون على المستوى الحسِّي، أي كانت نبضات قلبي تزداد بشدة إزاء حادث روحي، ما كان يتحرك له شعوري سابقاً حيث يبدو في مظهره عادياً بل وتافهاً. وقليلاً قليلاً حدث شيء غريب، وهو أن قلبي بدأ يضرب بشدة ويزداد نبضه، وجسدي كله ينمِّل numbness فجأة وبدون سبب، ولا يوجد أمامي أي شيء يستوجب ذلك، ولكن بمجرد أن أستمر في القراءة أجد بعد سطر أو اثنين الشيء الذي بدأ جسدي كله وروحي داخلي تنفعل معه. هنا أدركتُ أنه يوجد مجال خاص روحي بدأ يربطني بالله وبالأشخاص والحوادث، يسبق عقلي ويسبق عيني وذهني.

وهنا بدأتُ أدرك معنى النعمة (قوَّة مجانية إلهية)، وبدأتُ أدرك معنى أن الله موجود أو كلِّي الوجود، ولكن وجوده يحتاج منا إلى تهيئة خاصة أو تناغم خاص ليلتحم بهذه القوَّة، ثم أدركتُ إدراكاً عملياً ومحسوساً معنى حياة الله، وهي مجاله الفعَّال في الخليقة وفي الإنسان بصورة فائقة.

حينما بدأتُ أسترسل في دراسة حياة الآباء والأنبياء على هذه

الصورة من الدقة والاهتمام والانفتاح القلبي، ازدادت كثرة تردُّدي للدخول في مجال نعمة الله، وابتدأت قصص الآباء وحديثهم مع الله ومعاملات الله معهم تأخذ تجسيداً فكرياً لاإرادياً، وهو تصوُّر عقلي يظهر فجأة وبوضوح وكأنه يمكن إمساكه للحوادث والأشخاص بصورة واقعية متحركة غير منظورة للعين الحسية (وتبقى كما هي حتى ولو أغمض الإنسان عينيه)، لا تكون بعيدة عني (كأني أرى فيلماً سينمائياً مثلاً). كلاَّ، بل أجد نفسي داخل هذه الرؤيا أتحرك معها وفيها وكأن ما أقرأه وأتعقَّله هو خاص بي ولي ويشير إليَّ، فأجد في قصة إبراهيم مثلاً توقيعاً رتيباً لحياتي وما هو مطلوب مني، هذا بحد ذاته جعلني أقترب من إدراك معنى واختبار النِّعَم الروحية التي يسمونها وسائط النعمة.

فكانت روحي تتطبَّع وتتشكَّل وتتعدَّل داخل هذا المجال الروحي. ولكن ليست المسألة بسيطة كما يتصورها القارئ، فدخولي في المجال الروحي لأية قصة كان يحبسني فيها عن اضطرار فأظل محبوساً رغماً عني، ولكن بمنتهى مسرتي أدور في القصة الواحدة أسبوعاً كاملاً أو أكثر، فقصة إبراهيم بالذات ظللتُ داخل مجالها الروحي ما يقرب من ثلاثة شهور، ولكن دون أن يظهر عليَّ شيء مُلفت لنظر أحد. فكنتُ أسير سيري العادي وأُؤدي أعمالي اليومية العادية، ولكن دموعي لا تفارقني من الفرح والعزاء والاندهاش، وكأن نفسي تُهدم وتُبنى من جديد. ويمكن أن أصوِّرها بمنـزل قديم يُراد تجديده فتخلع منه كل يوم طوبة ويوضع بدلاً منها طوبة جديدة. فالمنـزل قائم أمام الناس كما هو ولكن حركة التجديد سارية فيه بلا انقطاع.

وهذه هي "الشركة مع شخصيات الكتاب المقدس"، وهذا هو مفهوم "الرؤيا العقلية" بصورة مبسَّطة.

• **سؤال: هل الكتاب المقدس وحده يكفي للتأمُّل في الحق والاتحاد به؟**

- القراءة لا تضيف على الإنسان شخصية غير شخصيته مهما قرأ حتى لملائكة، وليس لأنبياء أو أدباء أو عباقرة فقط.

القراءة **تنبِّه الوجدان، وتوقِظ النفس**. والنفس هي التي تجعل من الإنجيل إنجيلاً حيّاً، ومن الأديب أديباً، ومن الفيلسوف فيلسوفاً. النفس عندما تستيقظ، تنتفع بالكلام وتضيف عليه، وتقبل الفلسفة وتضيف عليها؛ لأنه يستحيل أن تنطبق نفس على بصمة نفس أخرى تمام الانطباق. كل نفس في العالم لها سمات ومميِّزات تظهر في الكلمة أو في الفن.

لذلك فالكتاب المقدس يظل للنفس غير المنتبهة لخلاصها كتاباً يحوي قصصاً أقرب إلى الخرافات منها إلى التاريخ الإنساني المنطقي، إلى أن ينتبه الوجدان (مجرد انتباه)، أو تستيقظ النفس (وهذه أعظم نعمة في الوجود)؛ حينئذ يتكشَّف الحق الإلهي بوضوح ساطع وقوة موجِّهة من خلال القصص والحوادث التي كانت سابقاً توافه وطلاسم وخرافات.

لذلك، يسعى الله مُحب البشر أن ينقذ النفس التائهة عن خلاصها فيجعلها تصطدم بهزَّة أو لطمة من نوع يتوافق مع تركيبها (ربما بكلمة في الإنجيل، ربما بعظة، ربما بأيقونة أو صورة، ربما بحادثة، ربما بموت أحد الأعزَّاء جداً، ربما بفقدان أو خسارة أموال كبيرة، إلخ...). وحينئذ تفيق وتنفتح عينها، فتبدأ ترى كل شيء متغيِّراً. وهنا يصبح الكتاب المقدس بمثابة السلَّم الطائر إلى عمق أعماق الحق!!

النفس المنطوية، والنفس المنبسطة:

● سؤال: هل الإنسان المُقرَّب إلى الحق يجب أن يكون بالطبع منطوياً؟

- أولاً أودُّ أن أُصحِّح مفهوماً هاماً يسري خطأً لدى أطباء علم النفس وبقية الشعب. فالشخصية المنطوية والشخصية المنبسطة introverted & extroverted، هما مظهران طبيعيان في تقسيم الشخصيات. وهذا غير **الانطواء المَرَضي أو الانبساط المَرَضي**.

وليس من الحق، ولا من العلم، أن نحاول أن نلعب في الشخصية المنطوية السوية healthy لنجعلها منبسطة، وإلاَّ نفسدها نهائياً فلا تعود إلى أصلها ولا تصل إلى هدفها قط. كذلك أيضاً الشخصية المنبسطة السوية.

ولكن الانطواء المرضي، ومظهره الكآبة والوجوم = **الملانكولي** melancholy، فيلزم علاجه بحدِّ ذاته بعيداً عن مفهوم الشخصية. كذلك الانبساط المَرَضي Hysterical، فيلزم علاجه أيضاً.

بَقِيَ أن نقول إنه لا علاقة على وجه الإطلاق بين التديُّن والانطواء. فالمتديِّن تديُّناً صحيحاً سليماً غير مريض، قد يكون منطوياً بطبيعته، فإذا دخل المجال الروحي يُبدِع، والمنبسط إذا دخل المجال الروحي يُبدِع. ولا أستطيع أن أُفاضل قط بين الاثنين، لأن الإنتاج الفكري والسلوكي يأخذ طابعاً معيَّناً متميِّزاً لكلٍّ منهما، لا يمكن التفضيل فيه بينهما.

أما طبيعتي الشخصية فهي اجتماعية منبسطة، أحب الهدوء بسبب شدة حساسيتي الوجدانية وتقييمي للأمور، مما يجعلني أتأثَّر بأكثر الأجواء المحيطة. فإذا كانت هذه الأجواء بها ضحالة أي تفاهة فكرية أو مزاج

سخيف... إلخ، فهذا يجعلني أنسحب في الحال من الوسط، لا تعالياً أو احتقاراً، ولكن بسبب تقييمي للوقت والأهداف.

الإرشاد الروحي وأب الاعتراف:

• **سؤال: ماذا تَرَوْنَ في الإرشاد الروحي والأب الروحي؟**

- حينما يشتدُّ الطلب على الإرشاد الروحي والأب الروحي، فاعلم أنه قد انحطَّ مستوى شخصية الجيل إلى الحضيض، لأنه يستحيل توصيل الله للآخرين كما توصَّل الحرارة أو الكهرباء للجسم. نحن نوصِّل المعرفة والمفهومات الإلهية للآخرين؛ أما الله فلا يُوصِّله إلى الإنسان إلاَّ الله نفسه.

كذلك إذا أصرَّ بعض خُدَّام الكنيسة على الهيمنة على شخصيات المؤمنين بالإرشاد الشخصي أو الاعتراف عن إلزام، فاعلم أن الكنيسة تكون حينئذ قد أحسَّت بخطر ضياع كيانها، وهي تريد أن تثبت وجودها وتحقِّقه قسراً بالدخول في حياة الشخصيات لربطها بها والتحكُّم في عقول شعبها، وهذا كفيلٌ بانطفاء شعلة الروح.

لذلك، فلضمان عدم إغلاق الشخصية واستعبادها، يتحتَّم أن يكون الإرشاد من واقع الإنجيل بوضوح وبدون إضافات وتعليقات حتى ترتبط الشخصية بالإنجيل والله، وليس بالمرشد.

ومن الأسباب الأساسية لخروج جيل في الكنيسة شبه ممسوخ في هذا العصر، هو محاولة فرض شخصية معيَّنة ذات سمات معيَّنة في ذهن المرشد ليتقمَّصها الشاب أو الشابة.

كذلك في الاعتراف، لا ينبغي أن يتم عند أب اعتراف غير ناضج أو يكون مريضاً مرضاً نفسياً، أو خارجاً عن الحياة الروحية الصحيحة غير

المفتعلة. لذلك، لابد من اختبار المرشَّح ليكون أب اعتراف اختباراً دقيقاً.

فإن كان في اختيار الأطباء المحلِّلين النفسانيين (وهم أقرب ما يكون لآباء الاعتراف) يلزم تحليل شخصياتهم هم أولاً - بعد كل دراساتهم وما نالوه من شهادات - في ١٨ جلسة متوالية لدى هيئة عُليا من أطباء الدولة، حتى يُسمح للطبيب النفسي بفتح عيادة تحليل نفساني (هذا في البلاد المتمدينة)، مع التشديد على مراقبة أخلاق الطبيب وسلوكه؛ فكم يكون بالحري أب الاعتراف الذي سيُمارس هذا العمل بعينه مدى الحياة مع أولاده؟

أب الاعتراف يلزم أن يكون أباً بمعنى الكلمة، غير مريض، ناضج الفكر، ليس منغلقاً، ولا ضيِّقاً، ولا متعصِّباً، ولا متحيِّزاً، ولا أنانياً، ولا حقوداً؛ وإلاَّ فإنه سيكون مصدر هلاك في الكنيسة.

- ٣ -

المفاضلة الفاصلة، كيف كتب السيرة الذاتية؟

المفاضلة الفاصلة:

● سؤال: تكلّمتم عن المفاضلة الفاصلة التي بعدها تركتم العالم وذهبتم إلى الدير، ألاَ يمكن تناول هذا الموضوع بشيء من الوضوح والتفاصيل الملموسة؟

- هذا أصعب الأسئلة التي واجهتها، لأن المفاضلة الفاصلة بين إمكانية وجودي في العالم كفرد مواطن فيه يعيش تحت أصوله وواجباته وتقاليده وأعرافه، وبين تَرْكي لكل هذا لأحيا حياة روحية لا تخضع لهذه الحتميات؛ لم تكن داخل الفكر، أي لم تكن عناصر عددية، هذه تفوق تلك؛ كما لم تكن أيضاً مجموع حسنات وسيئات نقارن بينهما في هذا الوجود أو ذاك الوجود. بل هي دوافع ونوازع لا يمكن حصرها تحت شكل معيَّن يمكن توضيحها لفكر القارئ.

فمعروفٌ أن أي سلوك أو فعل يقوم به الإنسان هو نتيجة أو محصلة نوازع وأسباب يستحيل حصرها تحت عدد، لأن بعضها كامن منذ الطفولة أو منذ ألف سنة في اللاَّوعي الإنساني في الإنسان، ويستمد حركته في هذه اللحظات فجأة، كما أنه توجد أسباب خارجة عن محيط الإرادة والإدراك تأتي بنوع من الحَدْس intuition أو الإلهام inspiration. وحتى هذه المعطيات الفائقة لا توجد هكذا فجأة أو

بطريقة عشوائية وكأنها نوع من السحر.

فالحدس والإلهام لا يظهران في الإنسان، إلاَّ إذا كان العقل مُهيَّئاً ومناسباً لنوع وحجم وقوة هذا الحدس الذي يقوم به الإنسان، حيث يبدو له أنه أخذ القرار بمحض إرادته؛ بل هذه كانت المزيج أو المحصِّلة لكل النوازع والأسباب.

فأنا خرجت للرهبنة - حسب إحساسي - لأن روحي أو نفسي لم تَطِقْ إطلاقاً أن تحتويها فتمتلكها حتميَّاتُ العالم من عُرف وتقاليد وواجبات ومجاملات وإتيكيت، ومن ضرورة الزواج وتربية الأطفال والتوفُّر الكامل على ذلك، ما يمكن ان يستفرغ هذه الحياة إلى مضمون آخر غير هذه الواجبات التي ينبع منها ويصب فيها.

أحسستُ بأن حياتي أو نفسي أو قلبي أكبر بكثير، أكبر - وبلا قياس - من أن أُدخِل نفسي أو قلبي هذا تحت أية قيود من هذا العالم. فهو لا يُساوي قلبي هذا، ولا يمكنني أن أبيعه إلاَّ لقلب الله نفسه.

لذلك كنتُ أحسُّ، وازداد هذا الإحساس جداً الآن، أن روحي قادرة بل هي فاعلة أن تستوعب أرواح آخرين ونفوس آخرين، ولكن بلا انحصار في شخص واحد لدرجة أن أُسلِّمها وأبيعها لتسكن ذليلة داخل قلب آخر لمشيئة أخرى: زوجة كانت أو حتى الدنيا بأكملها. ألاَ يقول المُحب لخطيبته أو لزوجته أو صديقته: "إن قلبي كله لكِ"! "حياتي بين يديكِ"! أو يقول الرجل الكادح في العالم: "أنا في دوَّامة"، "أنا مش حاسس بنفسي"، "أنا مش عارف رأسي من رجليَّ"!

فلماذا أدخل في هذه الدوَّامة لآخذ في النهاية شهادة مبايعة رسمية أختمها وأبصم عليها أني بإرادتي بِعْتُ نفسي، وليس لي الحق في استردادها، حتى أحصل على لقمة العيش؟

أعود وأقول إنه ليس تمرُّداً على العالم، ولا على الزواج، ولا على العمل والكفاح، اخترتُ أن أترك العالم؛ لكن **لأني وجدتُ في الحياة مع الله ما هو أثمن من كل ما هو في العالم، وما هو أفضل من كل غِنى وأمجاد وغرور هذا العالم.**

ولا أدَّعي أن هذه حالة خاصة، بل من الخطأ والخطر أن يقول هذا أي إنسان عني. فأنا أدرك تماماً أن كل إنسان يحمل هذا الوجود الأعظم في داخله. إنها **"الإنسانية"** بعمقها وهيبتها وعظمتها التي يمتلكها كل إنسان. كل ما هو مطلوب أن يُدرك الإنسان إنسانيته!!

والأمر المُكمِّل لهذا، وهو مدهش حقاً، أن أي ميل أو انحياز **لكيان الإنسان كله** نحو الله، يُقابله في الحال انحيازٌ من الله نحو الإنسان.

فانحياز الإنسان بكيانه كله نحو الله هو في الحقيقة بَيْعٌ رسمي علني، خصوصاً في التخلِّي عن العالم. إنها شهادة علنية لأفضلية الحياة مع الله، الإنسان يبيع نفسه لله. هذا يُقابله في الحال استلام الثمن، والثمن يفوق "البِيْعَة" كلها بلا قياس، لأن محبة الله تنسكب في قلب الإنسان لتملأه بل لتحويه. لذلك فإن بيع الإنسان نفسه لله يُقابله شراء الله لنفس الإنسان لتكون مِلْكَ الله. فالإنسان يدخل في ميراث الله.

والأمر قد يكون في شكله الخارجي نظرياً، ولكن الحقيقة **أني شعرتُ يوم أن تركت العالم أني صرتُ فعلاً مِلْكاً لله بكل كياني.** هذا بحد ذاته حفظني خاصة من كل ضيقة داخلية في ذاتي أو خارجية من صُنع العالم.

بل هذا جعلني أشعر أنني لم أَعُدْ بعد مِلْكاً لنفسي، فأنا لله وللآخرين، وآخر الكل هي نفسي! أنا كنتُ في العالم ناجحاً في عملي، وناجحاً في معاملاتي مع الناس جميعاً، وكنتُ أعيش في تقوى ومخافة الله وطهارة السيرة، وكانت لي آمال كأي إنسان يسعى للحياة في هذه الدنيا،

وكنتُ أعتقد أن أعظم ما يقتنيه إنسان في هذه الدنيا هو أسرة متحابة: زوجة وأولاد، يجلس بينهم بعد عنائه ليجد فيهم ما يُخفف أتعابه. ولكن كانت هناك عناصر أخرى داخلية على نفس القياس: الحرية المطلقة من كل قيود العالم، الاستمتاع الكلِّي بالحياة مع الله، المحبة للكل بدون تفرقة، وخدمتهم بدون مقابل بروح الطفولة العذبة، انفتاح البصيرة للإطلالة على العالم الآخر من خلال الإنجيل.

ولعل أقوى النوازع والدوافع على الإطلاق هو الإحساس القوي بالصوت المُبهم الداخلي الذي كان ولا يزال يدعوني ويشدُّني لاقتحام المجهول وراء نداء المسيح "اتبعني". هذان هما حدًّا المفاضلة.

كيف كتب السيرة الذاتية؟

- مقدمة للسيرة الذاتية كتبها للباحث الذي طلبها من قدس أبينا القمص متى المسكين، قبل أن يشرع في كتابة السيرة الذاتية التي نُشرت أخيراً في كتاب.

سأكتب لك على غير ترتيب أو نظام، وكذلك دون أن يكون في ذهني أية خطة أو صورة ما لِمَا أريد أن أُقدِّمه لك. سأترك نفسي على سجيَّتها، مؤكِّداً أنني ما كنتُ أكتب لك أو لغيرك عمَّا في نفسي أو حياتي لولا أني شعرتُ أنك التزمتَ بهذا البحث قبل أن تستأذني. فرأيتُ أن أكون على مستوى هذه المسئولية، ولكن ليس رغماً عني، لأني أشعر دائماً أني حرٌّ فيما أقول أو فيما أكتب.

علماً بأنني لم أكتب في حياتي قط سطراً واحداً عن حياتي - حياة الفرح والحب والمأساة - ولا حتى ألمحت إلى ذلك في أي كتاب من كتبي، أو أية مقالة من مقالاتي، لأنني لا أحسُّ بنفسي بل أخرج عن ذاتي متعمِّداً حينما أكتب في الأمور الوطنية أو في الدين أو القصص؛ حتى أستطيع أن أعيش الواقع مع القارئ في الموضوع، كما أراه أنا من واقع تأثُّري، ولكن دون تأثير ما من جهتي، وكأني أحيا مع القارئ الحق والحياة لأول مرة في مثل هذا الموضوع. وحتى في عظاتي أكون في الظاهر واقفاً أعظ الناس، والله يعلم أني أكون بكل كياني تحت تأثير الكلمات

عينها، وكأنها ليست كلماتي، وكأنما أعظ نفسي. لأنني حينما أنفعل بالروح أرتفع فوق ذاتي ارتفاعاً حقيقياً أحسُّه في أعماقي، وأخاف منه جداً لئلا أسقط منه.

وهكذا أريد أن أقول إني دائماً أعيش ما أقوله وأتغلغل بكل مشاعري فيما أكتبه، وكأني أركب الكلمات لتطير بي لأستمتع بالإنجيل والحقائق الإلهية بـل وحقائق الحياة مع سامعي ومع قارئي.

لذلك سبق وقلتُ لك إني لا أرى ذاتي فيما أكتب وفيما أقول، بل أرى الحقيقة دائماً وهي تُبهرني. وفي هذا الحق تمتد نفسي وتعيش هذا الوجود العظيم وكأنها تتلاشى لتتجمَّع مرة أخرى في صورة غير الصورة التي يراها باقي الناس، فأدخل في خِضمٍّ هذا الوجود الهائل، وكأني ممتدٌّ فيه طولاً وعرضاً وعُمقاً وارتفاعاً، فأنذهل وأفرح، وأستريح وأُسبِّح بأقصى كياني، شاكراً الله الذي يُذيقني سر هذا الوجود الهائل الذي يمكن أن يبتلع كل عظمة فكر الإنسان وفلسفته؛ إلاَّ حقيقة واحدة عُظمى لا يستطيع الإنسان أن يفصل نفسه منها.

كذلك لم أفكِّر قط أن أكتب شيئاً عن حياتي، لأني أحيا وجوداً أعظم من حياتي آلاف المرات، ولا أرى لحياتي أية قيمة في حدِّ ذاتها. فإذا حصرتُها في تواريخ وحوادث، تحلَّلت بين أصابعي الحاملة للقلم فلا أجدها إلاَّ أشلاءً ميتة موت الحوادث التي ابتلعها الزمن ودفنها في باطن الماضي. وإذا حاولتُ أن أستجلي فيها عنصر الحق والوجود الإلهي لا أعود أراها، لأن طغيان العنصر الروحي والوجود الإلهي على ذاتي لا يُبقي على شيء فيها يُذكر.

ولكن أعود فأقول إني سأبدأ بالكتابة لعلِّي أُقنعك من وراء كل ما تريد أن تعرفه عني أنني فعلاً كنتُ مُحِقّاً عندما قلتُ إن قصة حياتي

هي هذا الحق الطاغي الذي بدونه تبقى نفسي سراباً ليس وراءه شيءٌ ذو قيمة.

(ومن هنا بدأ أبونا القمص متى المسكين في كتابة سيرته الذاتية التي صدرت تحت عنوان: "أبونا القمص متى المسكين").

- ٤ -

بين التصوُّف في الأديان الشرقية، والتصوُّف في المسيحية

الفرق بين المتصوِّف والراهب:

• سؤال: ما الفرق بين المتصوِّف عند الأديان الشرقية، والراهب في المسيحية؟

- الأفضل أن يوضع السؤال هكذا: "ما الفرق بين التصوُّف في الأديان الشرقية والتصوُّف في المسيحية"؟ لأن كلمة "راهب" تُحدِّد شخصية دينية وحسب، فقد يكون متصوِّفاً وقد لا يكون؛ لأن التصوُّف منهجٌ، والرهبنة نظامٌ.

أ - التصوُّف تأمُّل ينتهي بالحدس intuition، وقد يصل إلى السرور المفرط ecstasy، ثم الرؤيا. وهو يعتمد على البناء النفسي والفكري للإنسان. فكلما كان البناء النفسي سليماً وقوياً healthy built & heavily built، وكلما كان البناء الفكري سويّاً وذا أصول صحيحة؛ هكذا تكون الممارسة التصوُّفية صحيحة. لذلك فإن أية رداءة في الأصول الفكرية والمبادئ الإيمانية، يُنشئ خبرات مريضة وضلالات، ويُدخِل الشخص في متاهات خطيرة تودي بحياته.

ب - التصوُّف خبرة روحية وفعل act - وليس فلسفة، وإن كانت الفلسفة الحقة هي تقابُلٌ بين خبرة التجلِّي الباطني مع العقل - وهو

يبدأ بالتخلُّص من ارتباكات العالم الحسِّي ليدخل عالم الروحيات. **فإذا لم يكن الهدف الذي تسعى إليه الروح لتلتحم به صحيحاً وحقاً يقينياً،** تتوه النفس وتعود بأشباه الحقيقة خالية من أي مكسب حقيقي أو أية خبرة يمكن أن تعقلها. لذلك فالإيمان الصحيح بالله والعقيدة السليمة - المسلَّمة في مُعطَيات موثوق بها - تضمن مسار الروح والتحامها بالحق. وكخبرة، فإن النمو في التصوُّف لا يقوم على المعرفة ولا على العلم والدراسة، وإن كان يُثريها بنتائجه؛ ولكن يقوم على القدرة النفسية والاستعداد.

ج - التصوُّف في الأديان الشرقية يعتمد على القدرة النفسية والتطهيرات والجهد؛ أي هو مجرد دَفْع من أسفل إلى أعلى.

أما التصوُّف المسيحي فلا يعتمد على القدرة النفسية وحدها، بل يعتمد بالدرجة الأولى على الوسيط، وهو الرب يسوع الذي يمسك بالنفس ويُؤمِّن لها المسير. والمسيح يهب قداسة للنفس، فهي لا تحتاج إلى تطهيرات بصورة عامة أو أساسية. فالجذب هنا هو من أعلى قبل أن يكون دفعاً من أسفل: «**وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليَّ الجميع**» (يو ١٢: ٣٢). وهذا أهم وأخطر ما يُفرِّق بين التصوُّف المسيحي وبين أي تصوُّف آخر.

د - التصوُّف في الأديان الشرقية تخرج فيه النفس لكي تسعى نحو الله الواحد بجهد الإنسان الشخصي متحرِّكاً نحو الله؛ ولكنه لن يبلغ الوصول إلى الله، ومجهوداته كلها ستظل - مهما بلغت من القُرب والرؤيا وحتى النفاذ في الله - بعيدة عن مفهوم **الاتحاد الحقيقي**. لذلك تكون رحلة النفس شاقة ومُجهدة مع إحساس مستمر بالفرادة، مع الرؤيا المحدودة والفرح والسرور الجزئي، وترتد النفس وحيدة، وغالباً

حزينة لتُعاود المحاولة. فهنا يظل التصوُّف في حدود التعطُّش نحو المطلق دون الاتحاد الحقيقي.

هـ - التصوُّف المسيحي ارتواء وعطش متبادَل ومستمر في طريق ضيِّق لا تيه فيه، إن كان المسيح حقاً هو القائد، لأنه هو الطريق. فالضمان كائنٌ منذ أول خطوة في الرحلة. والمسيح عندما صعد إلى السموات، دخل إلى الأقداس العُليا كسابق من أجلنا. ولذلك فهو يأتي ليأخذنا متى شئنا أن نتبعه ونسير معه ونسير به، نتحد معه قبل أن نتحد بالله الآب. هنا الوسيط يضمن الوصول قبل القيام. لذلك فالتصوُّف المسيحي يعتمد اعتماداً كليّاً وأساسياً على الإيمان بالمسيح أولاً، بمعنى بلوغ الاتحاد بالإيمان وبالسرِّ وبالحب، ثم بالاشتياق؛ حيث الاشتياق إلى المسيح كحبيب هو عتبة التصوُّف المسيحي.

ولكن التصوُّف المسيحي طريق ضيِّق جداً، بمعنى أن تأديباته وعقوباته حاضرة فيه عن كل تجاوز مقصود، بل قد يأتي التأديب لصياغة النفس صياغة أنسب للدخول من الباب الضيِّق وضمان عدم الرجوع. فالتصوُّف المسيحي بجملته رحلة مأساوية تنتهي بفرح أبدي.

نزول ابن الله من السماء وتجسُّده، أسَّس الطريق النازل من السماء من الله نحو الإنسان. وهذا بحد ذاته أكبر سرٍّ من أسرار التغيير والارتقاء الذي حدث في الكون لضمان صعود الإنسان من أرض الهلاك، لأن السماء انفتحت على الأرض كعمل إلهي وبمبادرة من الله، بإرساله ابنه الوحيد الذي في حضنه، إلى أن ذاق الموت من أجلنا وقام بنفس الجسد وارتفع إلى السماء، ليعود بغنيمته - وهو الإنسان المفقود - فاتحاً له طريقاً صاعداً إلى عالمٍ لا فناء فيه. هكذا صار الطريق highway من الله إلينا بالمسيح مفتوحاً لنصعد فيه بالمسيح في أمانٍ مطلق.

- لقد ذُقتُ مدى السهولة المُفرحة والمُذهلة التي أَدخُل بها إلى الله وأتعزَّى وأفرح وأشبع وأرتوي، وأعود من رحلتي كالثمل راقداً أياماً بجملتها أجترُّ فيما حدث بلا شبع؛ **ولكن في يقيني لم يؤدَّب أحدٌ ولم يُعاقَب أحدٌ مثلما تأدَّبتُ أنا ومثلما عوقبتُ، فالخلاص ليس سهلاً.**

التصوُّف المسيحي ليس صناعة مقصورة على الكفاءات العالية، بل هو باب مفتوح في السماء، والله نفسه في شخص يسوع يطلب الساجدين والداخلين، يدعوهم بأسمائهم ويجذبهم إليه حتى ولو كانوا في وسط حمأة الخطيئة. فالفرق بين التوبة والتصوُّف في المسيحية فارقٌ ضئيل جداً.

غاية التصوُّف في الأديان الشرقية أن **يَفْنَى المتصوِّف في الله**. وهذه الرؤيا ترجع إلى الإحساس بالصغر والعدمية لفكرة الخليقة عند الأديان الشرقية بالنسبة لله الواحد الأحد البعيد والمنزَّه عن الخليقة، لذلك لزم التطهير جداً.

- **غاية التصوُّف المسيحي أن يتحد الإنسان بالله اتحاداً لا رجعة فيه**. وهذه الرؤيا ترجع إلى الإحساس بالمسيح الذي اتحد بالطبيعة البشرية، والذي اتحدنا به بالإيمان؛ وجعل اللاهوت قابلاً قبولاً سهلاً وبتودُّد، أن يتحد به الإنسان (٢بط ١: ٤) دون أن يفقد الإنسان جوهره البشري، فيظل إنساناً كما هو ولكن ممتلئاً من الروح القدس. **فالتصوُّف المسيحي ليس فناءً وليس فقداناً للذات في الله، بل إثباتها ووجودها واتحادها بالله.**

و - التصوُّف في المسيحية هو المسيحية، لأن غاية التصوُّف تتحقَّق عند تجسُّد المسيح، أي اتحاد الله بالإنسان ليُسهِّل اتحاد الإنسان بالله. وما بَقِيَ على المسيحية إلاَّ أن تُحقِّق هذا على مستوى كنسي وجماعي فقط، ليظهر الفارق الهائل بين التصوف في الأديان الشرقية والتصوف المسيحي.

ز - التصوُّف في الأديان الشرقية اشتغالٌ بالله وتعلُّق به، وتعبيرٌ عن خلجات الحب والوفاء نحو الخالق المطلق، وعودة بلذائذ ومسرَّات (للذات) وخبرات صحيحة، لأن الله موجود حقاً، وهو يحب الإنسان حقاً، ويهب النعمة العامة لكل مَن يتقيه؛ لذا فإن هذا التصوُّف هو تحرُّك من نقطة هي الإنسان، والعودة إلى نقطة هي الإنسان مع بعض الخبرات.

- **التصوُّف المسيحي تطلُّع إلى الكمال، صراخ نحو الأفضل، تحرُّك من نقطة غير صحيحة في أعماق الضمير والنفس، هي البُعد والغربة والعداوة والأنانية والالتصاق بالعالم، إلى هدف كامل هو الاتحاد بالله، أي عدم العودة بالنفس الناقصة إلى النفس الناقصة؛** بل بقاء وسُكنى أبدية في حضرة الله، نأخذها بالفعل، ولكن لا تتبيَّن لنا بالحس. فالتصوُّف المسيحي رحلة تهذيبية، رحلة نمو وارتقاء، كلها خبرات وتجلِّيات؛ وتنتهي بالخبرة العظمى، وهي المجد كرؤيا واتحاد وإقامة: «أنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليَّ الجميع» (يو ١٢: ٣٢).

إن المسيحية أو بالحري المسيحيين المؤمنين والمتحدين بالرب، يكونون - بالنهاية وفي الحقيقة - مع المسيح، **إنساناً واحداً متصوِّفاً**، ينطلق من الأرض نهائياً ليكون مع الله الواحد إلى الأبد. لقد نزل المسيح إلى عالمنا من أجل ذلك خصيصاً لتكون لنا حياة أفضل مع الله (يو ١٠: ١٠)، وهي غاية التصوُّف، حيث «يكون الله الكل في الكل» (١كو ١٥: ٢٨)، دون أن يختلط الله بنا، أو ننعدم نحن فيه!! أو ننفصل عنه!! المسيحية وحدها بخبرتها التصوُّفية العظمى في اتحاد المسيح كإله بطبيعتنا البشرية، أعطت أملاً أكيداً للعالم للتغيير، وأعطته الهبة العُظمى وهي **اتحاد الكل بالواحد**.

الحديث الرابع

أدار الحديث يوم الجمعة الموافق ٢٥ يوليو ١٩٨٠ (المرحوم) الدكتور فايق متى إسحق الذي كان يعمل أستاذاً للأدب الإنجليزي في كلية الآداب – جامعة القاهرة خلال الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن الماضي. وبعد أن هاجر إلى كندا سنة ١٩٦٦، عمل رئيس قسم الأدب الإنجليزي في جامعة ليكهيد Lakehead بكندا. وقد انتقل إلى الأمجاد السماوية يوم ٣٠ أكتوبر عام ٢٠٠٦ عن عُمر يُناهز الرابعة والثمانين.

(يُرمز إلى آخذ الحديث الدكتور فايق بالحرف "ف"،
وإلى الأب متى المسكين بالحرف "م")

وقد سبق نشر هذا الحديث في مجلة مرقس،
أعداد: يونية، سبتمبر، أكتوبر، نوفمبر سنة ٢٠٠٧

حياة الرهبنة
أعماقها وطبيعتها

١ - ف: ما الذي جعلك تترك حياة المدينة وتذهب إلى الصحراء؟

م: بالحق فإن هذا السؤال وثيق الصلة بحياتي الباطنية وما يتصل بدخائل وأعماق حياتي. ويمكنني الرد على هذا السؤال بكلمات قليلة. الأمر يتصل بالاستجابة للوتر الحسَّاس الذي أحسست به باطنياً داخل قلبي منذ طفولتي. هذه الاستجابة كانت نتيجة التوازن الداخلي بين الروحانية في معناها العام كما يُشير إليه الكتاب المقدس: من عفة، وطهارة الشباب، والتقارب مع الله، هذا من جانب؛ ومن جانب آخر، حياة الشباب بما فيها من لهو وحرية.

كانت حياتي المبكِّرة عبارة عن عملية تحصيل معرفة، وعلى الأخص معرفة الأعمال والأفكار، الخيِّر منها والخبيث. كانت عملية تطوُّر في التعرُّف على عقلية الناس العائشين في العالم، من جهة صفات الرجولة وإمكانية كسب المال وتأمين المستقبل الباهر والزواج.

كان هناك في داخلي عملية موازنة نشطة، كانت مستمرة ولكن بطريقة هادئة جداً. وفي هذه الموازنة رجحت كفَّة الروحانية والإحساس الباطني بحضور الله على الكفَّة الأخرى. ولم تتناقص غيرتي وهمَّتي أبداً؛ بل كانت الكفَّة الراجحة دائماً في الصعود، وعلى الأخص بعد أن أكملتُ دراستي الجامعية، ثم عملت صيدلانياً.

لقد كنتُ ناجحاً جداً، وكان دخلي عالياً، وبالتالي أرباحي. لكن كل

هذا لم يُغيِّر أبداً من اتجاهاتي نحو العالم. حتى واجباتي وارتباطاتي بالأُسرة، لم تقف حائلاً ضد إمكانية رؤيتي لِمَا وراء حجاب المستقبل القريب. لقد تحقَّقتُ أن حياتي مع الله لابد ستكتمل قريباً.

الخطوة الأخيرة في طريق تقدُّمي، كانت هي تنامي اشتياقي نحو الله واستمرار إدراكي لمحبة الله داخل أعماق قلبي، كشيء يفوق إلى حدٍّ بعيد أي شيء في العالم. هذا الإدراك كان يُصاحبه دعوة باطنية في داخلي نحو الأبدية، ولكنها كانت ما تزال دعوة غامضة. ولكني تحقَّقتُ فيما بعد أنها دعوة حقيقية، وأنها بالنسبة لي هي جوهر الحق.

هذا الإدراك بأن الأبدية لها حضورها وكيانها في داخلي، كان يشدُّني دائماً، بالرغم من العلاقات الكثيرة جداً التي كانت لي مع العالم. كان الله يجذبني دائماً نحوه، بالرغم من أنه لم يكن في أسرتي من قبل أيُّ راهب أو أيُّ شيء يمتُّ للحياة الرهبانية بطريقةٍ أو بأخرى.

وكان انطلاقي للدير هو أول "دعوة" من نوعها في أسرتي. حينذاك عزمتُ، ومنذ دخولي الدير، ألاَّ أرجع مرة أخرى للعالم. وتدريجياً تحقَّقتُ بأن حياتي مع الله هي أكثر حقاً وأعمق عمقاً مِمَّا كنتُ أراه سابقاً من وراء حُجُب المستقبل القريب.

٢ - ف: هل يوجد - في رأيك - ثمة درجات أو مراحل في الحياة الرهبانية؟

م: ليس في الحياة الرهبانية من درجات، وهذا ينطبق على حياة المبتدئ في الرهبنة كما على حياة المتوحد.

وهنا قد نسأل: هل هناك أي اختلاف بين الحياة العلمانية (أي التي في العالم) وبين الحياة الرهبانية؟

إذا رجعتُ إلى الكتاب المقدس واستعداد الإنسان للخلاص والحياة

الأبدية، فإني لا يمكنني أن أنظر إلى الحياة الرهبانية أنها نمط حياة مسيحية أعلى مرتبة، ولا حتى طريقاً في الحياة أفضل. الحياة مع ربنا يسوع المسيح ليس لها أشكال ولا درجات ولا مراحل. إنها حياة في العمق وفي طريق الاكتمال. فالمسيح يرسل هباته للناس بدون تفريق بين طريق في الحياة وآخر. الروح القدس لا يُفرِّق بين غير المتزوج والمتزوج لأن قدِّيسي الله يشملون الاثنين.

الحياة الرهبانية هي محاولة فردية للحياة بطريقة خاصة لها سجاياها (أو فضائلها) الخاصة لإشباع إمكانيات روحية معينة، حيث يمتلئ الشخص بالمعرفة الإنجيلية. فإن تهاون الراهب في بلوغ هذه الغاية يكون بالتأكيد قد فَقَدَ طريقه.

ولكن ثبت بالتجربة، بعيداً عن أي شك، أن الذين يغوصون في أعماق الحياة الروحية وهم في حياتهم الرهبانية يكونون أكثر قُرباً لهذه الأعماق من الذين يعيشون في العالم المادي.

ومن حيث إنه لا توجد ثمة درجات في الحياة الرهبانية، فيقتضي القول بأنه يوجد فقط انكشاف الحق الإلهي واستعلان الخلاص والفداء والإدراك الداخلي لمعنى المحبة الإلهية والحياة الأبدية السماوية. وهذه كلها لا يمكن بلوغها بالمشيئة البشرية؛ بل بإخلاص الإنسان في الالتصاق بكلمة الله ومحبته الصادقة لربنا. ومن هنا فإن إدراكه لابد سيرتقي، ويصير استعلان الحق الإلهي حقيقة بالنسبة له.

ما قلناه هنا لا يعني أن الآخرين لا يمكنهم أن يتكلَّموا عن درجات الروحانية الرهبانية. فأوريجانس، مثلاً، تكلَّم بعمق عن هذه الدرجات. ولكن ما أسهبتُ في شرحه هنا هو الرؤية القبطية الأرثوذكسية الحقَّة التي هي ترقِّي أو ارتقاء انكشاف الحقيقة الأبدية للإنسان.

٣ - ف: أعتقد أن كثيرين من ذوي الدرجات الجامعية يحذَوْنَ حَذْوك. كيف يمكن لهذه النهضة الرهبانية أن تنفع الكنيسة؟

م: ككلمة حق أني لا أعتبر نفسي مسئولاً بأية طريقة عن تدفُّق هؤلاء الجامعيين إلى الرهبنة. فأنا راهب صرتُ - عن اضطرار - الأب الروحي للرهبان. وكواجب حتمي صار لزاماً عليَّ أن أتلقى اعترافاتهم. وفي نفس الوقت أحسستُ بأن جزءاً من واجبي أن أنقل للرهبان كل خبراتي الرهبانية.

أنا لم أفكِّر بتاتاً في مثل هذا السؤال. ولكني أعتبر أن هذا العمل صار فعَّالاً في مصر وفي الخارج، على قدر ما نكون قد بلغنا فعلاً هذه الخبرة الإنجيلية، ومعرفة الطريق إلى الله، والطريق إلى النسك الرهباني. والطريق الأول يُلقى نوعاً من الأصالة على الطريق الثاني.

وأعتقد أن الإخلاص لهذا التقليد الرهباني قد عمَّق فعلاً فهم الرهبان للحياة الروحية. وهذا قد ارتقى فعلاً بالإدراك الروحي بين الرهبان. إنه يوجد الآن (سنة ١٩٨٠) حوالي ٦٠ كتاباً يُعالج هذه الأفكار، وقد غيَّرتْ هذه الكتب الوعي الروحي لجيلنا سواءً من شبابنا أو من الشعب القبطي في الخارج. وهذه واحدة من أعظم الفوائد لهذا التقليد الرهباني. ولخبرات رهباننا هنا أمثالها في البلدان الأخرى حيث يحذون أو حتى يُطبِّقون نفس الأساسيات بعد زياراتهم المتكررة للدير.

أما رجائي فهو في تطلُّعات قد تبدو بعيدة المنال ومتسعة الحدود، وهي لم تتحقق بعد! فأنا لي آمال كبار في تكوين مجموعة من الرهبان من ذوي التفوُّق لكي يكونوا متضلِّعين ثقافياً في لغاتٍ عديدة، وبهذا يستطيعون أن ينقلوا الخبرات الروحية الأخرى المكتوبة بالألمانية أو اليونانية أو العبرية إلى العربية، والعكس بالعكس. مثل هذه الخبرات

سوف تكون ذات نفع للمؤمنين في بلاد المهجر، وكذلك للأجانب الذين يهتمون بالتقدُّم الروحي.

وإني أتوسل إلى الله بإخلاص أن يفتح الأبواب المؤدية إلى هذا الطريق. وكواقع عملي، فالرهبان هنا يدرسون اليونانية الكلاسيكية والألمانية، وهذه اللغة الأخيرة يُدرِّسها بروفيسور من جوتنبرج.

٤ - ف: بأية طريقة تعتبر فترات السكون وسهر الليالي أساسية للتقدُّم الروحي، أقصد التسبحة اليومية ومزامير السواعي؟

م: إن فترات السكون وسهر الليالي ليست كل شيء في الحياة الروحية. إنها تكوِّن جزءاً من العمل الرهباني الذي ينبع من الأعماق الداخلية للروحانية، إنها ثمارها. وبهذه الرؤية لا يمكنني أن أُجبِر أي راهب أن يقضي ليله ساهراً أو في سكون. لكن الراهب الذي يختبر السكون وسهر الليل، عادةً يرغب في المزيد. وهذه الخبرات هي عائد النُّضج الروحي. فالروح في مثل هذه الحالات ترغب بإخلاص أن تقضي فترات في السكون والسهر، مما يعطي للراهب فرصة لإدراك المعنى الحقيقي للمحبة الإلهية.

وما يهمني أن أقوله عن هذا التأثير، إنه لا يوجد أي عامل بشري يمكنه أن يُسعف إنساناً أو يُحسِّن حياته الروحية ولا خطوة واحدة تجاه النعمة.

هذا هو منطق الحياة الروحية. فالجسديات لا يمكنها أبداً أن تؤدِّي إلى أو تُحسِّن الروحيات. أما التسبحة اليومية أو الأبصلمودية فهي اللغة التي يستخدمها المُحبُّ ليُخاطب بها المحبوب.

فبعض الآباء يصرخون في فترات التسبيح والأبصلمودية، كانوا يحسون وكأنهم ليسوا على الأرض، إذ يشتركون مع القديسين والملائكة في التسبيح.

الجفاف الروحي وكيف نواجهه؟

٥ - ف: لقد ذكرتَ في كتاب "حياة الصلاة الأرثوذكسية" أن النشاط الداخلي للصلاة قد يُصيبه توقُّف تام بسبب "الجفاف الروحي"، فكيف يمكن تصحيح هذا الوضع؟

م: في الحقيقة أنا عالجت هذا الموضوع في الكتاب بالتفصيل، ولكنني أريد أن أوضح بعض النقاط. فالجفاف الروحي يرجع إلى أسباب عدة وتأثيرات مختلفة التي يمكن أن تبلغ إلى حدِّ الإحساس بالتغرُّب والبُعد عن المسيح، ثم توقُّف عمل النعمة في داخل الإنسان. وما أودُّ أن أُضيفه هنا، هو أن الإنسان يجب ألاَّ ييأس أو يفقد الرجاء، وإلاَّ يدخل في مراحل من الجفاف الروحي أكثر خطورة. في هذه الحالة يغيب عن الإنسان كل مصدر للتعزية.

إلاَّ أن هذه المرحلة، هي خبرة مثل أية خبرة أخرى تواجهنا في حياتنا، وكلها هي جيدة لنا. وفي أي مستوى، لابد أن نحاول أن نفتح الباب مرة أخرى، لأن مرحلة الجفاف الروحي ليست دائمة. إنه فقط من خلال الكسل يمكن أن نطيل هذه المرحلة، وهكذا تتوقَّف صلواتنا وأصوامنا.

الجفاف الروحي مفيدٌ لنا على قدر ما يُسلِّحنا بكل نِعَم الثبات في محاولاتنا الجادة لنستعيد حياتنا الروحية التي تكون قد فُقدت مؤقتاً.

ونصيحتي في هذا الخصوص، أن نقرأ الكتاب المقدس باستمرار وبطريقة منتظمة منظَّمة. فمن خلال الكتاب المقدس، والمثابرة على قراءته، تعمل نعمة الله فينا.

حالات دهش اضطرارية:

٦ - ف: هل اختبرتَ أية حالة "دَهْش" روحي أو نظر رؤى؟

م: في مراحل معينة من حياتي، وبقدر محدَّد جداً، حدثت هذه الحالة بطريقة اضطرارية وتلقائية، وبدون أي تنبيه مُسْبَق. وكانت حالات "الدهش" هذه عادةً يتبعها رؤى قد تستغرق فترات طويلة. وبعض هذه الرؤى استمر إلى ٤ ساعات متواصلة. وكانت كلها تتضمن تعليماً وتوجيهاً لي. وبمرور الزمن عرفتُ بعض الأحداث أو الحوادث المزمع أن تحدث، وقد حدثت فعلاً. وهذا ما جعلني أومن بصدق هذه الرؤى.

لم يكن في هذه الرؤى ما يسرُّ، لأنها كلها كانت لتعليمي؛ إلاَّ أنه بعد أن كانت الرؤيا تنتهي، كنتُ أحس بإرهاق جسدي، لأنها كانت تستحوز على كل كياني سواء العقلي أو العاطفي، أو الجسدي أو الروحي. كما أن هذه الرؤى كانت تختص بحياتي الشخصية.

سرُّ التقدُّم في الحياة الرهبانية:

٧ - ف: يبدو أنك تقدَّمتَ تقدُّماً هائلاً في حياتك الرهبانية في فترة قصيرة نسبياً، وأنك اقتفيتَ خطوات آباء البرية العظام؛ فما هي مفاتيح هذا التقدُّم؟

م: إن أردتَ الحقيقة، فإن تقدُّمي كان غير ملحوظ لي تماماً. وحتى هذه اللحظة أنا لا أحس بوجود تقدُّم. وما يُحيِّرني حقيقةً، ولكن في نفس الوقت يُحزنني، هو هذه الحقيقة: لماذا لا يتقدَّم كل الرهبان مثل هذا؟ أنا لا أجد في نفسي أي شيء أفضل أو أعلى من أي إنسان عادي. الشيء الوحيد الذي أعرفه بتأكيد، هو أني كنتُ مُخلِصاً جداً للقوانين الرهبانية، ومُخلِصاً أيضاً في قراءة الكتاب المقدس بجدٍّ وهمَّة، فقد كنتُ أحياناً أقرأ ستين أصحاحاً كل يوم! وما زلتُ أذكر أنني كنتُ أحياناً أصرخ من فرط الفرح.

لم أحس أبداً بأي إرهاق أثناء سهر الليالي وأنا أقرأ على مدى ساعات على لمبة جاز فقط! ولكن محبتي واشتياقي الشديدين للكنيسة القبطية بكل طقوسها وألحانها، جعل كل شيء لي سهلاً. وكلما كنتُ أسمع ألحان الكنيسة، كنتُ أحس بفرح غامر يسري داخل كل كياني. لقد شرعتُ أفهم بلا أية صعوبة معاني كل حركة تحدث في الكنيسة، وكنتُ أُشارك في مجريات الطقس بكل قلبي وأحاسيسي بروح الفرح والمتعة القوية.

البساطة واستقامة القصد حتميات في نجاح الحياة الرهبانية:

٨ - ف: هل أنت تعتبر الإدراك السامي والاتصال الروحي المباشر في استيعاب الحقائق الروحية أمراً حيوياً في أي سعي رهباني؟

م: الشعور الحسِّي للتقارب الروحي والاتصال المباشر هو في حدِّ ذاته أمر بديهي فطري. لقد لاحظتُ أن رهباناً كثيرين مِمَّن عاشوا ويعيشون معي لم يختبروا هذه الحياة المسيحية البديهية، هذه مشكلة يمكن شرحها بألفاظ أخرى كما يلي:

- هل الاتصال الروحي المباشر بالحقائق الروحية هو أمر حيوي في الحياة الرهبانية؟ وهل هناك طريقة تقود إلى هذا الاتصال المباشر؟

- إجابتي هي: إنه توجد حتميات في الحياة الرهبانية، مثل البساطة في حياة الراهب الروحية والعادية، مما يجعل هذه الحتميات أساسية. فأنا يمكن أن أكون أميناً ومُخلِصاً جداً في حياتي الروحية باعتبار حياة النعمة هي أساسية في حياة الراهب، وإلاَّ فإن هذه الحياة يمكن بسهولة أن تنهار، مما يؤدِّي إلى انهيار الشخص نفسه. لذلك فالإنسان الطموح

أو الشخص غير المستعد للحياة الرهبانية بعد، لا ينبغي أن يدخل في هذه الحياة الرهبانية، التي هي كنز للبسطاء ومستقيمي القصد.

النضوج الروحي قد يؤدّي إلى إدراكات روحية:

٩ - ف: هل، في رأيك، يُعتبر الإدراك الرهباني للعالم الروحي العلوي هو نضوج في الاختبار الروحي عموماً؟ وبأي معنى؟

م: الشخص الناضج يكون له بالتأكيد إدراك حقيقي للعالم الروحي العلوي، إلاَّ أن هذا الإدراك يعتمد بقدر كبير على مستوى نُضجه واختباره الروحي. ولابد أن يكون قد بلغ مستوًى عالياً من الجدِّية والفهم الصحيح للكتاب المقدس، ويكون قد بلغ درجة ما من الاستقامة والتقوى. إن الإحساس بالخلاص مليء بالفرح إلى حدٍّ انفتاح أبواب الإدراك الرؤيوي والعالم الروحي العلوي بسهولة.

لكن، حالات النشاط الروحي، ليست دليلاً ولا ضماناً للخلاص:

١٠ - ف: ماذا تفسِّر حالات اختبار السمو الروحي والفرح السماوي بالروح للذين ليسوا معتادين على هذه المجالات؟

م: مثل هذه الاختبارات الروحية ليست دليلاً على الخلاص، ولا هي ضمان لخلاص الإنسان. إلاَّ أنه توجد حالات من الاستعداد الداخلي والموهبة الداخلية التي تجعل الإنسان مستعدّاً لبلوغ هذه المجالات، ما نسميه "النشاط الروحي" مثل التكلُّم بألسنة على مثال الرسل وغيرها. وكل هذه الأنشطة هي في مجال وإطار الروحانية، ويختبرها الذين بلغوا درجات من الاستعداد الداخلي لها، إلاَّ أن هذه مجرد موهبة داخلية أو

استعداد داخلي، أكثر من كونها نضوجاً روحياً.

غاية الحياة الرهبانية:
جحد الإنسان مشيئته لتتحقّق مشيئة الله:

١١ - ف: هل تعتبر أن غاية السعي الرهباني هو استعلان الحقائق الروحية عن الله وعن قديسيه الأتقياء؟

م: غاية الحياة الرهبانية ليست في اقتناء أي شيء أو نوال أي شيء كعائد. الغاية الأساسية هي أن يجحد الإنسان مشيئته الذاتية لتحقيق مشيئة الله.

قد يكون الشخص راهباً لثلاثين أو أربعين سنة دون أن يبلغ إلى حياة الاستعلان. ولكنه يظل بطريقة طبيعية راضياً مرتاحاً أنه قد كرّس حياته لخدمة الله، وهذا في حدٍّ ذاته يكون موضوع اكتفاء وفرح له. إلاّ أنه في معظم الحالات يُكافئ الله الإنسان عن تكريس حياته له، وهو على الأرض، وقد يجعله "يتذوّق" شيئاً من الحقائق الإلهية مما يجعله يحس بالسعادة.

القديس بولس يُقرِّر أنه ارتفع فوق السموات، وكان فَرِحاً بسبب ما استُعلِن له. وهكذا تثبَّت إيمانه، وصار أكثر من قبل مُستعِدّاً لأن يبذل نفسه ويُواجه الأخطار بثبات.

سُكنى المسيح في القلب،
يظهر في تعاملنا مع الآخرين:

١٢ - ف: هل سُكنى المسيح في قلوبنا هو الغرض الرئيسي من الصلاة؟ وهل المظاهر الخارجية لهذه السُّكنى مثل اتجاهاتنا تجاه

الآخرين، هي نتيجة لهذه الحقيقة الأساسية؟

م: الجزء الأول من السؤال بخصوص سُكنى المسيح في قلوبنا صحيحٌ. الصلاة هي نشاط داخلي نحو المسيح، وهو بدوره يتحرَّك نحونا أيضاً. لذلك من الخطأ أن نكون بعيدين عنه، وهو من فرط صلاحه يردُّ لنا عشرة أضعاف.

وهنا أُريد أن أزفَّ هذه العطية العظيمة للجميع. فإن أعظم عطية يمكن أن نقدِّمها للآخرين، سواء كانوا مسيحيين أو غير مسيحيين، هو سلوكنا المستقيم، الذي هو نتيجة سُكنى المسيح في قلوبنا.

العلاقة بين التقدُّم الشخصي للراهب، والمسئولية العامة عن العالم الخارجي:

١٣ - ف: ذكرتَ في كتاباتك أن التقدُّم الرهباني هو شخصي. ألاَ ترى بأن هناك أيضاً مسئولية تجاه العالم الكائن خارج الرهبنة؟ هل توافق على أن توقُّف الراهب عن هدف الخلاص الشخصي له يمكن أن يؤدِّي إلى طغيان المسئولية تجاه العالم على الحياة الرهبانية؟

م: الحقيقة أن الراهب الذي ينجح، هو الذي يكون ذا نفع خاص للعالم. والنفع هنا هو استعداد العطاء. فإذا نظرتَ إلى الجانب الشخصي في جهاد الراهب، فأقول إن هذه ضرورة. الشخص لا يمكنه أن يُعطي قبل أن يكتسب الاختبار الروحي الضروري. إلاَّ أنه، من الوجهة العملية، مستحيل لإنسان أن يقتني المواهب الروحية ثم يبقى وحيداً وحده. ولكن من الخطورة الشديدة أن يظن شخص أنه قادر على العطاء للعالم بينما يكون ذلك بعيداً عن مناله وقدرته.

كما أن موهبة "البصيرة" (أو "التمييز الصحيح للأمور") هي

حالة من العطاء لا يمكن بلوغها إلاَّ بعد بلوغ "فيض النعمة". وهذه الحالة تأتي بعد نضوج الراهب. وبعد ذلك، فبقدر ما يعطي، بقدر ما يحس بضغط الروح ليُعطي أكثر. العطاء السخي الوفير بدون تصنُّع، هو ما نقصده. إنه ينبوع فيَّاض لا ينضب أبداً.

العلاقة بين "يقظة النفس"، واستعلان ربنا يسوع المسيح:

١٤ - ف: هل هو أمر مشروع في الاختبار الرهباني، كشف حقائق الوجود المجرَّد؟

(سؤال فلسفي! أما إجابة قدس أبينا الروحي فكانت رهبانية).

م: هي ضرورة رهبانية، ولكن الرهبنة لا تطمح إلى استعلان مجرد "حقائق". الرهبنة الحقيقية تستعلن حقائق يوماً بعد يوم، ولكن بعد قدر كبير من الجهاد والأمانة البالغة للطريق الرهباني. و"يقظة النفس" هي بداية الطريق الصحيح المؤدِّي إلى "الاستعلان الروحي"، وهذا تعبير ميستيكي (أي سرِّي، باطني).

ومن وجهة نظر رهبانية بحتة، "يقظة النفس" يتبعها تجديد ملحوظ وشهادة دامغة للوجود: الزهرة تتكلَّم، الشمس تفيح بالأريج المُعطَّر، حفيف الرياح يصير نغماً موسيقياً، والطيور تتجمَّع معاً لتُسبِّح الله؛ وهذا هو عالم الأبدية الذي يتشبَّع بجوهر الوجود وديمومته.

إمكانية رؤية الله والاتحاد به، ما هي متطلباته؟

١٥ - ف: لقد ذكرتَ في كتبك (كتاب: "حياة الصلاة الأرثوذكسية")

إمكانية رؤية الله والاتحاد به؛ ما هي المتطلبات المُسْبقة لمثل هذا الاختبار السامي؟

م: اختباري قائم أساساً على الكتاب المقدس. ففي اعتقادي بأنه من المستحيل لي أن "أعرف" الله خارجاً عن الكتاب المقدس. فقراءتي لآيات الإنجيل واستيعابها، قادتني إلى هذا الاعتقاد بأنه من خلال الكتاب المقدس يمكن جداً حدوث الاستعلان، وعلى الأخص ما يتصل بالله وعلاقته بالإنسان.

لقد اكتشفتُ أن أسفار العهد القديم أعطتني طرقاً ووسائل وفيرة لكيف "أعرف" الله! وفَتَحَتْ لي سُبُلاً جدَّ عملية وواضحة لإبراز هذه العلاقة.

لقد كان هذا موضوع تعزية وفرح عظيمين لي. لقد كنتُ أُريد أن أكتشف البداية الحقيقية "للطريق"، وتدريجياً بدأتُ أفهم كيف أقترب أكثر فأكثر من الله من خلال العهد القديم.

لقد صرتُ مأخوذاً بشغف من هؤلاء الأشخاص المحبوبين من الله. لقد انجذبتُ لإبراهيم أبي الآباء وتعلَّمتُ منه كيف أدخل في شركة مع الله، وأتوسَّل إليه، وأُطيعه. لقد سلَّمني العهد القديم سُلَّماً - إذا جاز التعبير - أتسلَّق عليه نحو السماء بطريقة جدَّ بسيطة وواضحة.

ثم انتقلتُ إلى العهد الجديد وأدركتُ المرحلة الحاسمة من تدبير الله مع الإنسان، وكيف كلَّمنا من خلال ابنه يسوع المسيح ليُعلن نفسه، ويستعلن اتجاهه نحو الإنسان، ومدى محبته نحونا. وتحققتُ أن العهد القديم مُكمِّلٌ للعهد الجديد.

وقد كان ذلك كله بمثابة استعلان لي أزال كل غشاوة وصعوبة أمام الرؤية الواضحة النقية لله.

أما إن كنا نريد أن نضيف عاملاً تَقَويّاً آخر، فذلك هو اختزال المسافة بين الله وبيننا؛ وهكذا لم يبقَ بعد ذلك لله سوى أن يُعلن نفسه لي. وهذا الاستعلان كان يشمل كل هذه الحالات التي تكلّمنا عنها.

واستعلان الله ذاته لم يكن نتيجة أي التماس، أو توسُّل حار، أو حتى عن توقُّع من جانبنا؛ بل كان مجرد عمل إرادي من جانب الله. لقد اقترب مني، ثم أعلن نفسه بطرق متنوعة. وقد كان يتكلّم إما بصوت مسموع، أو يظهر لي في الأحلام.

أما عن حالة الاتحاد بالله، فهي حقيقة تُعلَن لنا من خلال حياتنا ومن خلال الثمار المجنية من هذا الاتحاد بالله ومن تأثيراته فينا.

أما الثمار التي نجنيها من هذا الاتحاد، فهي تثبيتنا، بالإضافة إلى قناعتنا الراسخة من جهة خلاصنا، والفرح النابع من تأمُّلنا في الإكليل السماوي المُعدّ للذين يحبون الرب.

إننا نتحد به من خلال قرابتنا البنويَّة له. لذلك فاتحادنا بالمسيح هو حقيقة متناسبة مع إيماننا.

"المعرفة"، والاختبار الرهباني:

١٦ - ف: هل تعتبر أن مشكلة "المعرفة" لها علاقة - بطريقةٍ ما - مع الاختبار الرهباني؟ وبأي معنى؟

م: بالتأكيد جداً، ولكن ليس بطريقة مباشرة، لأنه صعب أن يكون الإنسان متصوِّفاً[٣] دون أن يكون ناسكاً، وإلاَّ فلن يبلغ شيئاً مما يسعى وراءه.

فالإنسان الذي يصوم هو بالتأكيد في وضع أفضل يُهيِّئه للحديث مع

(٣) mystic، أي متأمِّلاً في الأسرار الإلهية.

الله، دون ذلك الإنسان الذي لا يضبط نفسه. والذي يعيش عيشة الكفاف، ويتعفَّف عن المباهج المادية لهذا الدهر، يحسُّ في قلبه أنه قريب من السماء وله شركة مع قدِّيسي الله الأبرار.

هل الرهبنة اختبار معرفة، أم استعلان؟

١٧ - ف: أنا مغرم بالاعتقاد بأن الحياة الرهبانية هي اختبار مستمر "للمعرفة" التي هي أساساً "استعلان". إلى أي مدى تتفق معي في ذلك؟

م: الرؤيا والاستعلان ليسا على نفس الخط مع هذه المعرفة. فأنا أومن بأنه إذا كانت النفس الداخلية نقية ومستقيمة، فإن النية المستقيمة يمكن أن تستدعي حالة الاستعلان. وهذا يتضمن وجود خط فاصل بين ما هو إرادي وما هو لاإرادي في تحصيل الاستعلان.

فإذا أنا أردتُ أن أعرف شيئاً ما، فإني بعد بعض المحاولات والجهود أصل إلى أن أعرف هذا الشيء، وهذا عمل إرادي.

أما في حالة "الإدراك الرؤيوي"، تظل الرغبة الجادَّة كامنة إلى أن تبلغ بنا - لاإرادياً - إلى حالة الاستعلان.

الاختبار الرهباني:

١٨ - ف: عند هذه المرحلة أنا مُتشوِّق جداً أن أعرف نظراتك في "الاختبار الرهباني"، وعلى الأخص أنك ناسك رائد؟

م: أنا لا أعتبر أن لي نظرة خاصة في الرهبنة، لأن ذلك يُطوِّح بي بعيداً عن الآباء. ولكن أمامي النموذج الممتاز للقديس أنطونيوس الذي وجد في الرهبنة الطريق المباشر والسهل لتطبيق آية الإنجيل بطريقة عملية. لقد أنصت للقراءة الإنجيلية التي تُتلى في الكنيسة، فباع

كل ما كان يملكه آنذاك، وبهذا حقَّق حقَّ الإنجيل من خلال اختباره الشخصي.

أما من جهتي أنا، فقد بنيتُ اختباري على نفس البناء الذي بنى عليه القديس أنطونيوس. فأنا أومن أن في الرهبنة حياة حقيقية يمكن أن تُختبر وتُعاش بحسب نصِّ الإنجيل. لقد كان ذلك مصدر فرح غامر استطعتُ من خلاله أن أنقل السعادة للآخرين.

الاختبار الرهباني وعلاقته بالمعرفة عن الله:

١٩ - ف: وعلى ضوء الحوار السابق، هل يمكن أن تعتبر أن اختبارنا الرهباني عن الله، ومعرفتنا التصوفية (الباطنية الميستيكية mystical) لله، تتفاعلان معاً؟ أم هما حقيقتان منفصلتان؟

م: إنهما يعملان معاً، إلاَّ أنه عند البعض يكتفي الإنسان بالنسك بالرغم من حقيقة أن أي تقدُّم ونمو في إطار الحياة الروحية الباطنية الداخلية يُضاعف من سعادتنا. لكن من الممكن أن يكون الإنسان ناسكاً فحسب دون أن يكون متصوِّفاً mystic أو ينشغل بالتصوُّف mysticism.

علاقة الاختبار والمعرفة بالحوار مع الله:

٢٠ - ف: هل تتفق معي بأن إدراكنا للعلاقة بين الاختبار عن الله والمعرفة عن الله، هو خطوة نحو الحوار بين الله والإنسان، الذي هو واحد من منشطات الحياة الرهبانية؟

م: إن الحوار بين الله والإنسان هو الذي وَلَّد فيَّ الحياة الرهبانية.

فالحوار مع الله الذي حدث من خلال شخصيات وقديسي العهد القديم، خلق فيَّ شهية أدخلت في إدراكي الباطني أن أكون واحداً مثل هؤلاء. ونفس الأمر مع شخصيات العهد الجديد، فقد جعلني أحس أني لستُ مُهمَلاً من الله.

فهذا الحوار الذي حدث مع هؤلاء الذين انخرطوا في العبادة والنسك هو الذي أوجَدَ الاختبار الروحي الرهباني من خلال الإنجيل. إني أحسُّ بأني ما زلتُ قزماً وأني في بداية الطريق، وما زلتُ أتقدَّم وأنمو روحياً تحت اسم "الأُبوَّة الروحية".

وعلى مدى هذا الحوار مع الله، فهناك فترات للتعلُّم، وفترات من الشدَّة والتأديب الروحيَّيْن لابد أن نجتازهما، إلى أن نبلغ حالة النضوج الروحي.

هذا الحوار يتم على أعلى مستوى. فهو يعني تواجه ما هو إلهي مع ما هو بشري، بالإضافة إلى الجهاد المستمر لبلوغ الغاية المنشودة. لذلك، فهذا الحوار يصل في النهاية إلى حالة من البَلْورة يتواجه فيها الإلهي مع البشري ويتصالحان.

٢١ - ف: نتقدَّم خطوة أخرى، كيف يمكن أن يكون هذا الحوار حقيقة حيَّة؟

م: الاختبار المرتبط بهذا الحوار لا يمكن أن يصير حقيقة إلى أن يُدرك الإنسان مدى التغيير الذي حدث، ليس فقط فيه هو؛ بل وفي الآخرين أيضاً، وعلى الأخص من جهة نمط التفكير، والاستعداد، والحكمة، والمعرفة الاستعلانية. هذا يعني أن هذا الحوار أثمر نتائج ملموسة كأنْ يُغيِّر كل شيء فينا وفيمَن يتصل بنا. وحينئذ نصل إلى أن نتحقَّق أننا بالحقيقة مخلوقون على صورة الله، وإلاَّ فلن يكون هذا الحوار سوى حالة

طارئة وسهل الاقتلاع بسهولة.

٢٢ - ف: هل تتفق معي في أن هذا الحوار هو قمة أو نقطة انطلاق أو صعود في حياة الراهب، من خلاله يمسك الراهب بالحقائق الإلهية السمائية؟

م: نعم، أتفق معك. ولكن هذا يعتمد بدرجة كبيرة على إخلاص الراهب في هذا السبيل. فلابد أن نبتدئ بالصلاة، وننتهي حيث تكون الشركة مع الله مُمكنة.

استعلان الرب يسوع، أعظم اختبار رهباني:

٢٣ - ف: ما هو أكثر اختبار شخصي مُثير قابلته في حياتك كراهب وكأب روحي؟

م: استعلان المسيح هو أعظم اختباراتي الرهبانية كراهب. وقد حدث بثلاث طرق مختلفة:

أ - استعلان مرتبط بإحساس عميق بأن الله قريبٌ جداً إليَّ. وقد كان لي هذا مصدراً حقيقياً للفرح، إذ أنعم بسلام وثقة لكل الذين يقتربون مني.

ب - واختبرتُ أيضاً الاستعلان المُفاجئ، حيث أحسستُ بأن المسيح قد أتى بقصد تعليمي. في ذلك الوقت كنتُ أعرف أني في مفترق الطرق، حيث لابد لي أن أواجه إما مصاعب أو تغييرات آتية في طريقة حياتي. وحينئذ فهمتُ أن شيئاً ما لابد أن أعمله، وأن أكون في وضع الاستعداد في أي وقت.

ج - الاستعلان الشخصي للمسيح وجهاً لوجه. وهذا حدث لي

مرتين في حياتي. وفي كلتا المرتين كنتُ على وشك أن أتخذ قرارات خطيرة، فأتى ليُباركها ويجعلني في راحة باطنية. وقد صَاحَبَ هذا الاستعلان شعورٌ أكيد بالسلام.

وقد كان الاستعلان يقترن بكلمات الحكمة والاستنارة. هذه كانت أعظم الاختبارات وأكثرها تأثيراً على مدى حياتي الرهبانية.

ما هو ضمان دوام حياة النهضة الرهبانية؟

٢٤ - ف: هل هناك أي ضمان أن هذه النهضة الرهبانية الحاضرة المرتبطة باسمك سوف تظل حيَّة؟ وكيف؟

م: هذا كان اهتمامي الأعظم منذ أن صرتُ أباً روحياً. إني أحسُّ بخطورة هذه المسئولية، لأني فعلاً أومن إيماناً شديداً بأن العمل الصحيح الناجح هو ذلك العمل الذي يدوم باقياً بالحقيقة بعد موت الذي اتخذ المبادرة به، ثم يستمر في النمو.

أما كيف يمكن أن يتمَّ ذلك، فيمكنني أن أقول إني تعوَّدتُ أن أقنع أي راهب أن لا يكون في حياته أي طموح غير الشركة الوثيقة مع الله. فإذا اقتنع الراهب بأن الحياة الرهبانية هي حياة كاملة ترنو إلى الاكتمال، حينئذ أضمن الشرط الأول لبقاء الرهبنة حيَّة.

أما الأمر الثاني، فهو متصل بي أنا شخصياً. فأنا لا أُريد أن شهرة الدير وكل ما يتصل به، تكون متركِّزة فيَّ، حتى إذا فشلتُ في شيء يفشل الرهبان في تحمُّل المسئولية بعدي، وبهذا المعنى لن يكون ضمان لاستمرار الرهبنة حية.

لذلك فإني أحسُّ بقوة في نفسي أني لابد أن أنسحب تدريجياً وأختبئ بإرادتي، حتى ولو مع المخاطرة بخسارة قليلة، حتى تنبثق الشهرة

من الداخل بدلاً من أن ترتبط بإنسان معيَّن.

وعلى كل حالٍ، فقد بدأتُ أحاول أن أُتمِّم هذا الهدف بكل إمكانياتي وبكل كياني.

وببلوغي هذا الهدف سأحسُّ بأني قد نجحت إلى حدٍّ كبير.

الحديث الخامس

في صيف ١٩٩١ حدث هذا اللقاء وتَّمت هذه المحاورة بين الأب متى المسكين وبين الدكتور جابر عصفور والدكتور نصر أبو زيد والدكتورة هدى وصفي. ثم نُشر في مجلة: "البلاغة المقارنة – "ألف""، العدد ١٢، بعنوان: "المجاز والتمثيل في العصور الوسطى". ثم في يونية ٢٠٠٦، نشر الدكتور نصر أبو زيد هذا الحوار مرة أخرى بعد انتقال الأب متى المسكين.

وهو تحفة في أدب الحوار بين مفكِّرين مسلمين وراهب مسيحي.

وهذا الحوار عن مجلة: "أخبار الأدب"، الأحد ٢٥ يونية ٢٠٠٦، العدد ٦٧٦.

وقد سبق نشر هذه المحاورة في كتاب: "أبونا القمص متى المسكين – السيرة الذاتية"، الذي صدر في شهر أغسطس ٢٠٠٦.

الله، المسيح، الرمز

تقديم: دكتور نصر أبو زيد

❖ ثلاثة من كبار مفكِّرينا حاوروا الراهب والمفكِّر الأب متى المسكين، ونُشرت المحاورة التي تكشف عن الحجم الفكري للراحل العزيز في العدد الثاني عشر من مجلة البلاغة المقارنة "ألف"، وهو عدد خصَّصته المجلة الرصينة للمجاز في العصور الوسطي. ننشر في هذا البستان المحاورة بإذن من "ألف".

● حين توجَّهنا في صيف ١٩٩١ لعقد هذا الحوار مع الأب متَّى المسكين، لم نكن نظن أن الحوار سيتشعب ويمتد هذا الامتداد الأُفقي والرأسي؛ فأُفقياً: حدَّثنا الأب عن تجربته الروحية في خطها التطوُّري منذ اختار طريق الرهبنة وهجر الصيدلة سنة ١٩٤٨ حتى عزلته الحالية في دير الأنبا مقار على الساحل الشمالي، مروراً بالصعوبات التي تعرَّض لها من الكنيسة، والصعوبات التي مرَّت بها الكنيسة ذاتها نتيجة الخلافات التي شجرت بين الأنبا شنوده والرئيس السادات؛ ورأسياً: ساعدنا الرجل بكل السماحة والحب على القيام برحلة داخل وعيه بدءاً من وعيه الديني وانتهاءً بوعيه بمشكلات العالم المعاصر، وفي القلب منه مصر والعالم العربي، مروراً بآليات الشرح والتفسير وتأويل الرموز الدينية في الكتب المقدسة.

ومن حق الرجل علينا أن نشهد له بأنه مُحاوِر من الطراز الأول، يُجيد الاستماع والإنصات، بالقدر الذي يُجيد به التعبير عن نفسه

بهدوء وثقة وتواضع في الوقت نفسه. إنه تواضُع العلماء، وثقة الواصلين، وهدوء أهل اليقين. لقد أبدي صبراً وتفهُّماً لِمَا قلناه نحن أهل الظاهر والجزئي والنسبي، واستمع إلينا وتفاعل معنا طامحاً أن يصل بنا إلى عالمه، ويرتفع بأرواحنا إلى ذُرَى يقينه. لقد كان سعْيُنا للحوار مع الرجل نابعاً من احترام عميق لشخصه، ومن إدراك لأهمية إنجازاته الفكرية التي توَّجها بشرحه لإنجيل يوحنا في مجلَّدين كبيرين. وكانت عودتنا بعد الحوار عودة الظافرين بحصاد لم نكن نحلم به، فقامة الرجل، شخصاً وإنجازاً وتواضعاً، أعلى من كل تصوُّراتنا.

وما نُقدِّمه لقارئ هذا العدد من "ألف" هو جزء من ذلك الحوار الخصب الثري، جزء اضطررنا لاقتطاعه ليُناسب محور العدد. لكننا حافظنا على الحوار كما هو، ولم نكن بحاجة إطلاقاً للتدخل أو التعديل. وهذا الجزء الذي اقتطعناه دار كله حول شرح إنجيل يوحنا، وحول معضلة التفسير والتأويل، وقراءة الرموز... الخ. تحية للأب متى المسكين من "ألف" التي تأمل أن يتواصل قراؤها عبر هذا الحوار مع الرجل، العالم والمفكر والراهب.

نص الحوار

هدى وصفي: نريد أن تحدِّثنا عمَّا قمت به من شرح إنجيل يوحنا، ويدفعنا إلى هذا السؤال منهجك في الشرح من ناحية، والتمهيد المستقل الذي قدَّمتَ له للشرح في أكثر من أربعمائة صفحة بعنوان المدخل لشرح إنجيل يوحنا. وواضح أنك كنت تقدم في هذا الشرح ترجمة تفسيرية جديدة للنصوص الأصلية؟

متى المسكين: في الحقيقة، أنا حين ابتدأتُ الترجمة واجهت معضلتين: الشرح، والتفسير. فالكلام بحاجة إلى تفسير، وبعد التفسير بحاجة إلى شرح، لأنني أوضِّح معنى النص، وأرتبط بالنص ارتباط أمانة، ونقطة البداية هي ترجمة النص، لأنه يوناني ذو ترجمة سقيمة، ولذلك أبدأ بإعادة ترجمته. بعد ذلك أبدأ التفسير على ألاَّ أخرج خارج النص إطلاقاً، وإلا فإن ذلك لا يُعتبر تفسيراً. فأي خروج نسميه عدم أمانة، وهذا لا ينطبق على القرآن. ففي القرآن ليس بعد النص شيء، ولكن في الإنجيل، لدينا ما يجعل الكاتب يكتب مثل إنجيل يوحنا، فهو يوضح كلام المسيح ويشرحه. فقبل النص هناك صاحب النص، ولذلك لابد أن أتعرَّف على النص كي أقول الشرح، وتلك مرحلة ما قبل التفسير، وفيها خروج عن النص ولكن في حدود صاحب النص، إذ لابد لي أن أعرف صاحب النص سواء كان المسيح أو يوحنا، وأن أتربَّى بالمعنى الصحيح تحت رجليه، وأن أعرف خلجات قلبه وفكره، وبالتالي أستطيع أن أكتب أكثر من النص مرات كثيرة، وأشرح النص دون أن أخرج عنه قيد شعرة.

جابر عصفور: أنت، إذن، شارح بالمعنى التأويلي، على أساس أن التأويل عَوْدٌ على البدء، ومن ثم فشرحُك إدراك لغاية صاحب النص.

متى المسكين: أنا لا أُؤَوِّل، أنا آخذ التأويل من صاحب النص.

جابر عصفور: بمعنى أنك ترجع إلى الأصل.

متى المسكين: أرجع إلى النص فقط، وليس إلى ما قبل النص.

نصر أبو زيد: في القرآن ليس عندي ما قبل النص.

جابر عصفور: في الإسلام ليس هناك ثنائية.

متى المسكين: لا، ليس ثنائية، ولكن أستطيع أن أُسمِّيه الفكر الكلِّي المطلق أو الوعي الكامل، يتدرج إلى الوعي غير المطلق المرتبط بالعقل فيتنـزَّل كلاماً، ولكن قبل الكلام وعي خارج عن الكلام، أقوى منه وأكبر منه ولكن لا يخرج عنه.

نصر أبوزيد: في القرآن، نربط بين التفسير والعلوم اللازمة للاقتراب من النص، بمعنى أنني لا أستطيع تفسير آية دون أن أعرف أسباب النـزول.

متى المسكين: هنا أستطيع القول، ولك أن تردَّني، إن وراء النص القرآني هناك الروح القرآنية التي كتبت القرآن، كيف أتبيَّن هذا؟ محمد عبده والأفغاني خرجا عن النص وشرحا، وكان شرحهما مقبولاً وتأثيرهما قوياً على المسلمين، ولكن هذا انتهى يوم قُفل باب الاجتهاد، وهذه مأخوذة على المسلمين، إذ كيف يُقفَل باب الاجتهاد، والاجتهاد مرتبط بالله وليس بالقرآن فقط، الاجتهاد هبة، رجل موهوب فكيف أقول له لا تجتهد، وهو أخذ من الله "فَرَمَان" (أي تصريح) أن يجتهد ويشرح. إنَّ غلق باب الاجتهاد يكون حين يغلق الله باب الإلهام.

نصر أبوزيد: بالنسبة لمسألة الإلهام، هل أنت من المتصوِّفة؟

متى المسكين: لا، لستُ صوفياً.

نصر أبوزيد: هناك قول شائع ومستقر مؤداه إن كل كلمة وكل حرف في القرآن له ظاهر وباطن، وله حد وله مَطْلع، أربعة مستويات في التفسير، هل توجد هذه المستويات الأربعة في تفسيرك؟

متى المسكين: أنا أتكلَّم عن الباطن، فأنا أري المسلم المتمكِّن من الروح الإسلامية، الذي يُتقن العبادة والتقوى، عنده قدرة على دخول باب الاجتهاد، وهذا مُنِع، وأنا في الحقيقة آخذ ذلك على المسلمين، فكيف يُغلَق باب الاجتهاد بعد محمد عبده والأفغاني. لماذا؟

جابر عصفور: لأسباب سياسية معروفة، وعند بعض المجموعات فحسب.

نصر أبوزيد: في الحقيقة، إن باب الاجتهاد مُغلَق منذ زمن طويل، والذي حاوله محمد عبده أنه وارب الباب قليلاً، ثم أُغلق مرة ثانية.

متى المسكين: لماذا؟

نصر أبو زيد: كما يقول الدكتور جابر، لأسباب سياسية.

متى المسكين: أتعرف أن ذلك هو الذي فَرَّقنا، هو الذي فَرَّق الإسلام عن المسيحية.

نصر أبوزيد: هذا أكيد.

متى المسكين: حتى المسيحية حين انقسمت إلى كاثوليكية وبروتستانتية وأرثوذكسية، تركت الوعي العالي ونزلت إلى الوعي العقلي، فحين يرتفع المسلم في باب الاجتهاد ويتلامس مع الروح، سوف يتلامس معي بلاشك، ولكن حين ننـزل على الأصول فقط، سيكون لك

بيت ولي بيت، لا تزورني ولا أزورك.

جابر عصفور: هذه النقطة، لو أَذِنْتَ لي، نريد أن نتوقَّف عندها قليلاً، الذي فهمته الآن أن هناك ما يُسمَّى بالروح الكلِّي، وهذا هو المستوى الأعلى، وهناك ما يُسمَّى بالوعي الجزئي، أي الوعي المتصل بالعالم، وهناك النص، ثم هناك أنت كقارئ؛ وسؤالي هو: هل يستلزم فهم النص نوعاً من الاتحاد الوجداني بينك وبين الروح الجزئي الذي يجعلك تتصل مباشرة بالروح الكلِّي؟

متى المسكين: طبعاً، وأنت قد شرحتَ.

جابر عصفور: أريد أن أسمع منك.

متى المسكين: أنت أوضحتَ بما يكفي، أنا أُعطي لأُناس معرفتهم قليلة بالوعي الروحي العالي، ولكن لديهم التراث الإنساني، سواء الإسلامي أو المسيحي، لديهم النفحة التي أعطاها لنا الله، أعطاها لآدم ولي ولك، أخذنا الوعي الكلِّي بالله كهبة، ولكن تُهْنا بسبب خروج آدم من وجه الله وتعسُّفه وتعرُّجه في العالم، فضاع منه الوعي الكلي وعاش بالوعي الجزئي، ومن حين لآخر، على يد هذا النبي أو ذاك في العهد القديم، إلى أن جاء داود وسليمان الحكيم اللذان انطلقا من الوعي الروحي المحدود في العقل إلى الوعي الكلِّي، وأعطانا لمحة، هذا هو ميراث البشرية. مباركٌ هو الإنسان الذي يستطيع أن ينفذ من الوعي المحدود المرتبط بالعقل الذي يتربَّع على التاريخ والزمن والقياس، ينفذ من الباب الموارب إلى الوعي الإلهي، هذا يكون الإنسان الإلهي الذي يتقرَّب إلى الله، ويعبده ويعرفه بشكل صحيح.

جابر عصفور: في هذه الحالة، حين يكون هناك نوع من الاتحاد الوجداني، هل نستطيع القول إن شرح الإنجيل الذي كتبه الأب متى

كان مرآة الأب متى التي انعكس عليها الوعي الكلّي بطريقة تتناسب مع درجة الاتحاد الذي تم بين الأب متى الشارح وبين النص المشروح.

متى المسكين: في الحقيقة، لا أُخفي عليك، أنا لم أتجرَّأ طيلة عشرين عاماً أن أقترب من إنجيل يوحنا، لشموخه، ولشعوري بالعجز والقصور، ماذا حدث؟ إن هذه السنين جعلت الوعي يرتفع ويتذوَّق، إلى أن بدأتُ أقرأ إنجيل يوحنا وأكتشف أن هناك معاني مختلفة وجديدة، وقلت لرهبان كثيرين، كم أتمنى شرح إنجيل يوحنا ولكني لا أقدر، إلى أن جاء اليوم، وأحسستُ أن الوعي الذي أشعر به قريب من الوعي الذي كتب به يوحنا، لدرجة أنني حين كان يستعصي عليَّ مفهوم، كنت أتوقف، وأجلس صامتاً وأُصلِّي، أريد أن أشعر به وتقريباً أُخاطبه، وأقول له: ماذا تريد أن تقول؟ إن الكلام واضح ومفهوم ولكني لا أستطيع أن أعيه كي أكتبه: لحظتها، يأتي الحدس فأكتب، وهذا هو خلاصة قولي، حين تقترب من صاحب النص تحصل على الشرح، أنت تقول إنني مرآة، في الحقيقة لستُ مرآة، أنا مُوصِّل صديق لصاحب النص، قريب منه وأُحبه.

هدى وصفي: كونك تعيش مع المؤلف، أو صاحب النص كي تشرحه، هل هذا ينطبق على النصوص الإلهية فقط، أم على جميع الإبداعات؟

متى المسكين: إذا جعلتِني أدرس أي شاعر أو أديب مِمَّن يملكون الوعي العالي، فأنا أستطيع أن أشرح لك ما قاله مثلما شرحت يوحنا. هذا ميراث بشري مشترك، وأنا عثرت عليه، وعنده مثلما عندي وربما أكثر، ولكن ليست هناك محاولة، وأنا واثق مما أقول، وتستطيع بهذا المفهوم أن تعود إلى القرآن وتشرح، فالشرح يتعلق بصاحب النص، وهذا هو ما اكتشفته بالنسبة للدكتور نصر أبوزيد، فهناك النص والتفسير والتأويل، ولكن أين الشرح؟

نصر أبوزيد: في الانتقال من الظاهر إلى الباطن إلى الحدِّ إلى المَطْلَع، الذي هو الروح الكلِّي.

متى المسكين: أنا أقف عند الباطن، لأن الخروج عنه درجة غير بشرية.

نصر أبوزيد: المتصوِّفة المسلمون تحدَّثوا عن أربع درجات، وطلعوا إلى الرابعة.

متى المسكين: لا تُصدِّقهم كثيراً، وفي المبدأ السُّني، لا يؤخذ برأي المتصوِّفة لأنهم تجاوزوا النص.

جابر عصفور: أتصوَّر أنك تمثِّل منطقة وُسْطَى بين التصوُّف والعقلانية.

متى المسكين: أنا معك، فعقلي الباطن صديق، وهو ما يسمونه بالجوانية، فإذا تكلَّمتُ في العلم آتي لك بجديد بسبب أنني أنتقل بسهولة من العقل المحدود إلى ما فوق.

نصر أبوزيد: أريد أن تشرح لنا دورك كشارح للنص، كيف تكتب للقارئ الذي لم يَخُضْ التجربة من حيث التقوى والصلاة وغير ذلك، كيف تُحيل الفهم إلى خطوات لغوية وتفسيرية؟

متى المسكين: هذه هي الأدوات.

نصر أبوزيد: نعم، ونريد أن تُحدِّثنا عنها.

متى المسكين: البركة فيمَن علَّمونا من الأساتذة، طه حسين والعقاد، كيف كانوا يوضِّحون ويقسِّمون المعنى، وكنت أتساءل وأنا أقرأ كيف قسم هذا المعنى أو ذاك؟ فلا يمكن أن تتعلَّم شيئاً دون أن تعرف من أين جاء. فالأدوات ليست محتاجة إلى دراسة، الأدوات تلقين، والتلقين إذا ما تقابل مع الآلة المستعدَّة ساعتها أجد الكلمة تأتي بشكل عفوي

ومباشر إلى درجة أنني إذا ما أتتني علاقة لغوية مسجوعة، أخاف من السَّجْع(٤) لكيلا يقول أحد أنني أَسْجع، فأحذف السجع، فأنا لا أُقدِّم سجعاً ولا جمالَ لغةٍ، أنا روح في لغة، لغتي ليس لها قيمة، لغة محدودة، ولكن الروح هو الذي يجعلها لغة برَّاقة.

جابر عصفور: ألم يحدث مرة أن الروح لم يتجسَّد في اللغة بسهولة، أو أن اللغة تأبَّت على الروح في التعبير؟

متى المسكين: أنت تضغط على مواجعي، فما كتبتُه هو ربع ما أريد، وما جعلني محدَّداً شيئان: القارئ، واللغة. القارئ لا يستطيع الاستيعاب، واللغة قاصرة، وحين يكون المعنى قويّاً، تجدني اختزلتُ في الكلام.

جابر عصفور: هناك صوفي من متصوِّفة القرن الرابع (الهجري) هو النفري، له عبارة جميلة وموحية تقول: "كلما اتَّسَعَتْ الرؤية، ضاقت العبارة"، وأنت تتحدث عن كيفية تجسُّد الروح في لغة، واللغة بطبيعتها المحدودة لا تستطيع استيعاب كل شيء، لا تستطيع أن تُجسِّد إطلاقية الروح.

متى المسكين: الله مُدرَك كامل، يُدْرَك ولكن ليس كما ينبغي.

جابر عصفور: معنى ذلك أنك فيما يتصل بمسائل الشرح، مؤمن بالعلم المضنون به على غير أهله، وأن هناك مستويات للعلم ومستويات للعقول البشرية!

متى المسكين: لا، كل عالِم وكل مشتغل بالعلم يصل إلى العلم لو مرَّن حواسه الروحية، وكل إنسان فيه روح ووعي مطلق ولكنه مرتبط بالعقل، فلو مرَّن العالِم حواسه لابد أن ينطلق. أنا أقول ذلك وأنا

---

(٤) أي كلام مُقَفًّى ذو فواصل.

حزين، أنا كنتُ إنساناً ضعيفاً ولم يكن لديَّ وعي، أنا رجل عملي، صيدلي، أدواتي هي الموازين وأنابيب الاختبار ومراقبة الألوان، ولكني حين تقرَّبتُ إلى الله كراهب، وأَخلصتُ، انفتح لي العلم شيئاً فشيئاً، هل هذا حِذْق مني؟ أبداً، هل هذه إيديولوجية؟ لا.

جابر عصفور: ولكن هذا يجعلني أسألك مرة ثانية: لماذا شرح إنجيل يوحنا بالذات؟

متى المسكين: اِقرأْ الأناجيل وأنت تعرف.

جابر عصفور: ولكني أريد أن أسمعها منك.

متى المسكين: في الحقيقة، الأناجيل الثلاثة الأخرى تُقدِّم التاريخ، مسيح التاريخ، الولادة والصِّبْا والتعميد والتعليم، ولكن يوحنا لم يُقدِّم هذا التاريخ، لم يذكر بيت لحم ولا مريم العذراء إلا في مرات قليلة، ثم إن يوحنا بالذات تعرَّف على المسيح وعاش معه قبل التلاميذ بمدة، وعاش معه في اليهودية (فإسرائيل مملكتان: فوقَ هناك ما يسمَّى إسرائيل، وتحتَ اليهودية). وأول ما بدأ المسيح بدأ في اليهودية فترة ربما سنة، وكان معه يوحنا، وهذه السنة قالها يوحنا. فوق هذا، فإن الأناجيل الثلاثة لم تذكر أورشليم إلا مرة واحدة، أي سنة واحدة ذهب فيها المسيح إلى أورشليم وعَلَّم هناك وصُلب، ولكن يوحنا ذكرها ثلاث مرات أي ثلاث سنين. إذن، إنجيل يوحنا هو الذي يقول لك إن المسيح عاش في اليهودية تقريباً ثلاث سنين ونصف، فيوحنا يُعطي فرصة أوسع للتعرُّف على المسيح. بالإضافة إلى ذلك، تتحدث الأناجيل الثلاثة على المستوى العقلاني التاريخي، ولكن يوحنا وجداني وروحاني، وأعتقد أنه كان يُسجِّل الكلمات ولا ينقلها من الذاكرة. وأهم ما في إنجيل يوحنا هو حوار المسيح مع الفرِّيسيين الذين كانوا تماماً على مستوى الدكتوراه

في اللاهوت، فتصوَّر حواراً بين المسيح وبينهم، يوحنا يُسجِّل الحوار بعمق، ومع كل هجوم منهم يأتي المسيح بتعاليم جديدة. فهجوم الفرِّيسيين هو الذي كوَّن إنجيل يوحنا. كذلك فإن المسيح كان يذهب إلى أورشليم، ويذهب إلى هيكل سليمان ويعظ، وكان الكهنة يحضرون فيحدث نقاش معهم حول طقوسهم وأعيادهم، وفي كل عيد يشرح لهم طقس العيد على مستواه الجديد. فمنهج العهد الجديد، إذن، كله في إنجيل يوحنا، وأيضاً يوحنا لم يُقحِم نفسه، أنت لا تجده ولا مرة يُعلِّق، بل تجد حواراً حُرّاً ليس فيه الإيديولوجية الثقيلة.

نصر أبوزيد: ولكنه اختار ما يحكيه.

متى المسكين: قام بانتقائه، قال: "أمور كثيرة قالها المسيح، ولكن هذه اخترتها لكم كي تؤمنوا".

هدى وصفي: هذه هي الإيديولوجية.

متى المسكين: إيديولوجية اختصار وتركيز فيما ينفعهم.

نصر أبوزيد: ما يتصوَّر هو أنها تنفعهم.

جابر عصفور: ولكن هناك سؤالاً في الجوانب البلاغية لو أَذَنْتَ لي، أنا أُلاحظ في المدخل والجزءين الآخرين، أنك لا تستخدم إلاَّ رموزاً، وفي الشروح الدينية دائماً ما يقرأ الإنسان الاستعارة والمجاز، ولكنك ملتزم دائماً بالرموز، لماذا؟ لماذا لا توجد إشارة إلى الاستعارات؟ لماذا الكلام عن الرموز فقط؟

متى المسكين: هذا سؤال مبدع، معك حق، وفي الحقيقة كل ما عُرف عن المسيح في العهد القديم رموز، يُقال مثلاً: رفع موسى الحية على عصاه في البرية كي يراها كل إنسان، فقد كانوا يعصون الله فجاءت الحيات وعضَّتهم، فموسى هنا فعل شيئاً لا يعرفه، واليهود طوال العهد

القديم لم يعرفوا هذا السر، فقالوا: هاتِ عصا واصنع حيَّة نحاسية، وكل مَن ينظر للحيَّة ويكون معضوضاً سيُشفَى؛ رمز خطير في العهد القديم كله، أتعب اليهود كثيراً، ما هي الحيَّة؟ فجاء إنجيل يوحنا يقول: كما رُفعت الحية في البرية، كما رفعها موسى على العصا، كذلك سيُرفع ابن الإنسان على الصليب، من أجل أن يشفي كل مَن رآه. رمز ظل مغلقاً حتى بعد أن قاله المسيح، فالرمز القديم بديع والجديد أبدع، فأنا محصور بين رمزين، فلابد أن أشرح الأول والثاني. في الأول صُوِّرت الخطيئة في حيَّة، وهذا مستمَدٌّ من قصة آدم، فالحيَّة النحاسية رمزٌ ضارب إلى بعيد؛ وجاء المسيح، وهذا ما أتعب اللاهوتيين كثيراً، لماذا قال يوحنا إن المسيح رُفِع، وفات عليهم أن الحيَّة رمز الخطيئة، والحيَّة النحاسية ميتة، فالمسيح سيموت؛ رمز الحية الأول ميت، فالرمز هنا تحقَّق بحيَّة الخطيئة ميتة في المسيح، فالخطيئة ماتت في المسيح، المسيح أمات الخطيئة.

هدى وصفي: لو سمحت لي، فأنا أتصوَّر أن سؤال الدكتور جابر مرتبط أكثر بالصور البلاغية.

متى المسكين: أنا مضطرٌ هنا أن أتكلَّم عن الرموز لأنها أقرب إلى ما أريد، فالرمز مرتبط بالحقيقة والروح. المسيح قال: "أنا هو باب الخراف، كل مَن يدخل عن طريقي يصبح راعياً، ومن لا يدخل عن طريق الباب لا يصبح راعياً". إنه هنا وضع رمز الباب، وبعد ذلك قال: أنا الباب والطريق، فأصبح رمزاً.

جابر عصفور: أودُّ أن أسأل سؤالاً قد يبدو ساذجاً على نحو ما، ما الذي يجعل من هذا رمزاً، ويُخرِج ذاك من الرمز؟ في الشِّعر هناك مشكلة، كيف نحدِّد الرمز؟ فنحن نستطيع فهم، ليس فقط النصوص المقدسة، ولكن أيضاً النصوص الأدبية إذا كان عندنا ما يُشبه المعيار

الذي يحدِّد لنا ما الرمز، فلماذا الخمر رمز؟ والكرم رمز؟ والنار رمز؟ والنور رمز؟

متى المسكين: هذا من تراثنا القديم، من التراث الفرعوني، لماذا الإله شمس؟ أو قمر أو ثعبان أو صقر؟ لماذا الرموز؟ لقد جاء أخناتون وحلَّها. قال: الإله واحد، وكل هذه رموز، والرمز في العهد القديم مؤلَّه. وفي العهد الجديد: لماذا الماء رمز؟ لأن الماء يعطي حياة، فحين يقول أنا ماء حي، معروف أن هذا الرمز يحمل أقوى صفة يمكن أن نُسقِط عليها الشخص، فلا أستطيع أن آتي بـرمز لا يحمل صفات أساسية في الشخص وإلا تصبح صورة مهزوزة، فحين ترى الصور التي أخذها المسيح وأَحَلْنَاها إلى رموز، تجد مجموعها يُكوِّن صفات المسيح.

هدى وصفي: يمكن أن يكون رمزاً ولكنه ليس حقيقياً، ويمكن جزئية معينة تُذكَر، لكن ليس شرطاً أن تكون مبنية على شكل من أشكال التعبير، فأنت تقول لابد أن تكون هناك جزئية متحقِّقة كي تصلح لأن تكون رمزاً.

متى المسكين: هذا في الشعر والأدب، ولكن في المسيح لا، فحين أقول الماء الحي فهذا تعبير حقيقي وليس رمزياً، وحين قال: يخرج من أمام عرش الله نهر، هذا ليس رمزاً ولكنه وصف لواقع. فالمسيح حين يقول: أنا راعي الخراف، هذا ليس رمزاً ولكن حقيقة على أساس أننا خراف ناطقة، لو أنك أخذتها على أنها خراف عادية تصبح رمزاً، ولكن لو عرفتَ من المضمون أن الخراف ناطقة وأننا جميعاً خراف الله، وأن الخراف حينما تخلص جداً تصبح ذبائح إلى الله، نُقدِّم أنفسنا ذبائح إلى الله. فالوصول من الرمز الشكلي إلى الحقيقة الإلهية فاتت على كثيرين، فهي ليست رموزاً بل حقائق.

نصر أبوزيد: الرمز هنا مرتبط بالعالم الجزئي.

متى المسكين: بمفهوم العالم الجزئي هو رمز، ولكنه بمفهوم المطلق ليس رمزاً.

جابر عصفور: معنى ذلك أن الرمز ليس استعارة، لأن الاستعارة لها معنيان، أولهما لا معقول له، وثانيهما هو المعقول والمقصود، والرمز عندك معقول كله. وكل رمز هنا له معنيان: معنى ظاهري وهو حقيقي، فنحن خراف بالفعل في نهاية الأمر، وله معنىً ثان من حيث دلالته على الحقيقة المطلقة الكلِّية. وعلى هذا الأساس لَو قلنا إن العرش الإلهي يتفرَّع منه نهر، فهذا حقيقي على المستوى الظاهري للرمز، ولكن له معنى ثانياً مرتبطاً بما كنتَ تُسَمِّيه الشرح. بهذا المعنى، الرمز ليس له علاقة بالاستعارة، لأن الاستعارة بالمعنى البلاغي ظاهرُها غير حقيقي، فإذا قلت مثلاً: رنت لنا ظبية وأنا أقصد فتاة جميلة، فالظاهر هنا غير حقيقي.

متى المسكين: لذلك، فمن الأدب الديني أن لا نوقع الرموز على الله إلا إذا كانت من واقع الله الرحمن الرحيم. ولا أختَرع كلمات، فليس مُصرَّحاً لي أن أُعطي رموزاً للمسيح إلا إذا كانت من صميم الصفة الطبيعية فيه.

هدى وصفي: هذا ليس رمزاً، بل حقيقة.

متى المسكين: بشكل رمزي، فحين أقول: "الله ماء"، أو: "أنا الماء الحي"، هذا رمز ظاهري.

هدى وصفي: ولكن كيف يتحقَّق في العالم المطلق؟ فلو قلنا إن الله ماء، كيف يتحقق ذلك في العالم المطلق؟ لا يتحقق، لأن الله لن يكون على شكل نهر في العالم المطلق.

متى المسكين: هنا يعجز العقل، هنا الرمز في شكله الظاهري العقل يحصره، ولكن حين أرفعه للمطلق لا أستطيع أن أحصر الله فيه، وأقول الله نهر أم لا. هنا أكون قد حصرت الله وهذا تجديف. لا أستطيع أن أحصر الله في نهر أو ماء وإنما أستطيع القول إن الله كان ماء.

هدى وصفي: هذا في اللغة العربية تشبيه.

جابر عصفور: هناك قضية أنت تلحُّ عليها سواء في المدخل أو الشرح، وهي قضية رؤية الله، أنت تعطيها اهتماماً، فمثلاً في تفسير القرآن هناك آية: "وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة"، هناك اختلاف في تفسيرها، بعض المفسِّرين من أهل الظاهر يقولون الرؤية بمعناها العادي، وطبعاً يُردُّ عليهم أنهم وقعوا في التجسيد. وهناك مفسِّرون يقولون برؤية القلب؛ ومفسِّرون آخرون، وهم من المعتزلة، يقولون الرؤية هنا مجازية، بمعنى التوجُّه إلى الله، لكنك هنا تقول شيئاً مختلفاً.

متى المسكين: رؤية الله لا يمكن أبداً أن يحصرها العقل ولا يصفها، ولا اللغة تستطيع أن تُوقعها في معان، ولكن هل تمَّتْ؟ نعم. كيف؟ لا يمكن التعبير عن ذلك. رؤية المطلقات غريبة عن العقل والمنطق، ورؤية الله موهبة عظمي للوعي الكامل للإنسان، خصوصاً عندما يتدرج من حق إلى حق حتى يُستأمَن على أن يواجه الرؤية. هنا ينبهر العقل ويرتد محسوراً، وحين تسأل متصوِّفاً: ماذا رأيت؟ يقول رأيت بهجة. صِفْ. لا يمكن. لماذا؟ لأنه أراد أن يُسقطَها على المحدود، وهذا مستحيل، ولكن أنت سوف ترى الله حينما تكون فوق، وتحسُّه وتعبده. ولكن كيف؟ لا يمكن التعبير. ونحن الآن عندما نعبد الله نحاول أن نُدخله في صور.

نصر أبوزيد: أنت قلت في عبارة مهمة جداً أريد أن أربطها بمسألة الرمز، إن المسيح كلمة الله وأيقونة الله، وهذا يُفسِّر مسألة الرمز

بالنسبة لي. فالمسيح كلمة حين تجسَّدت، تحوَّل المسيح إلى رمز دالٍّ على الأصل، فعندي هنا رمز وعندي مرموز كلِّي مطلق، هل مقولة الرمز في المسيحية أي التأويل الرمزي خاضع لهذه البِنْية؟

متى المسكين: أي بِنْية؟

نصر أبوزيد: إن المسيح أيقونة الله، فإذا استبدلنا بكلمة المسيح هنا كلمة رمز، فهمنا أن المسيح أيقونة الله لأنه جاء لتخليص البشرية، وفهمنا من الأيقونة الإلهية أن الروح الكلِّي الذي تجسَّد في شكل ناسوت، هذا الناسوت هو الله وهو المسيح في الوقت نفسه، هنا شيئان ولكنهما في الواقع شيء واحد، العقل يدركهما اثنين ولكنهما واحد، رمز جزئي في واقع يرمز إلى كلِّي فيما وراء الواقع.

متى المسكين: في الحقيقة، الشيئية هنا احتملت الحلول فلم تَعُدْ شيئية، فالمسيح عندما حلَّ في الناسوت، الكل حلَّ في الجزء، ولكن الجزء لم يعد جزءاً، الكل انفرش على الجزء، والجزء انفتح على الكل، فأصبح المحدود غير محدود، وأصبح اللامحدود في صورة المحدود، كالحلاج مثلاً حين قال: "أنا المسيح" وصلبوه. فالذي حدث أنه شعر بالكل حلَّ فيه فغُشَّ العقلُ، وظن أنه أصبح كُلاًّ. وفي المسيح فإن الكلَّ فعلاً حلَّ في الجزء، فاستجاب الجزء وانفتح على الكل فلم يَعُد جزءاً.

هدى وصفي: هل تطابق مع الكل؟

متى المسكين: نعم، تطابق مع الكل.

هدى وصفي: حتى في لحظة وجوده على الأرض؟

متى المسكين: نعم.

هدى وصفي: فكيف نُبرِّر صلواته وفيها انفصال عن الكل وطلبه

رفع المعاناة عنه.

متى المسكين: لأنه يُمثِّل البشرية، يُمثِّل الإنسان.

هدى وصفي: إذن، هناك لحظة تكون فيها الثنائية واضحة.

متى المسكين: لا، هذا سؤال صعب جداً، أوقع الكاثوليك في الأرثوذكس. هنا في الحقيقة، حين نتناول الجسد نحن نتناول لقمة صغيرة ونقول نحن نتناول المسيح، الجسد هنا رمز واضح وأصبح قطعاً، ومع ذلك فإنَّ مَن يتناول القطعة الصغيرة يكون كأنما أخذ المسيح بداخله. هنا تنـزُّه خالص عن المادة، المادة شكلاً، ولكن الجزء انفرش وأصبح كُلاًّ إلى درجة أن المسيح فيَّ، نحن نؤمن بالحلول، وهنا الجزء أصبح كلاًّ، لدرجة أنني حين أصلِّي على القربان، وأقول: هذا جسد المسيح، وفق كلامه، ونأخذ القطعة الصغيرة؛ نعتبر أننا أخذنا المسيح بداخلنا، ونحسُّ، وليس هذا تصوُّراً وإنما قوة، وربما أتكلَّم بلغة أخرى، هنا انتقال إلى شيء إلهي. لذلك أقول إن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي أُعطِيَ له أن يُحوِّل الزمن إلى خلود، والشيء إلى المطلق.

جابر عصفور: ولكن هذا مفهوم مختلف عمَّا نعرفه عن الرمز، فأنت جعلتَني أتصوَّر أن الرمز أيقونة الله تماماً، مثلما المسيح أيقونة الله، وهذا ليس مفهومنا عن الرمز. هنا هو الصورة التي يتجلَّي بها المعنى الإلهي كي ندركه.

متى المسكين: لا الرؤية ولا التجسُّد يؤدِّيان إلى شيء. فمَن رآه اعتبره إنساناً عادياً، هنا الاستشفاف أو الوعي الروحي المنفتح؛ فيرى ما لا يُرَى، ويُدرِك ما لا يُدرَك، وهذه عظمة الإنسان.

جابر عصفور: هل ما يؤكِّد هذه الفكرة أنَّ كل الرموز المستخدمة هي ظواهر الطبيعة؟

متى المسكين: ليس لدينا مجال آخر.

نصر أبوزيد: وهذا سؤالي عن الحقيقة والمجاز، نحن نستخدم اللغة ونقول: الله قادر وعالم، ونستخدم نفس الصفات عن الإنسان، أين الحقيقة وأين المجاز؟

متى المسكين: أقول لك، وهنا لمسة صوفية، الإنسان غير قادر وغير عالِم إطلاقاً، الإنسان قادر بالله. لو لم يجعلك الله قادراً، فلن تكون. فالقدرة المنسوبة للإنسان مجازية ومأخوذة تجاوزاً. مَن الذي هو قادر على كل شيء؟!

هدى وصفي: حتى لو هو غير مُدرِك وغير مُعترِف؟

متى المسكين: حتى لو تجبَّر واحد وقال: أنا قادر بغير الله، نقول له: تفضَّل وارفع هذا الكرسي. فيُحاول رفعه فلا يقدر، هنا يتدخل الله، هل يؤمن أم لا يؤمن؟ والله فعل هذا كثيراً، الإنسان ليس عنده شيء، هذا تكبُّر وانتفاخ، وهذه كلها سرقة مُباحة، فالله سمح أن نسرق صفاته ونتكبَّر بها، ولكن لا يوجد إنسان عالِم بذاته وقادر بذاته.

أحاديث متفرِّقة

وهي مجموعة أحاديث تمَّت بين الأب متى المسكين وبعض الهيئات الدينية والدُولية من أنحاء متفرقة من العالم ولم تُنشر من قبل

حديث مع راهبين من دير شيفتوني ببلجيكا

(يونية عام ١٩٧٧)

❖ دار الحديث عن الرهبنة وكيفية انفتاحها على الخدمة الروحية في العالم وكيفية نقل الخبرات الروحية عبر الأجيال.

يقول الأب متى المسكين:

في الحقيقة إن الروح الذي كان يُحرِّك الآباء، كان روحاً قوياً لأنه كان يبني الأساس الذي تُبنَى عليه الكنيسة كلها، فعندما نتأمل بدقة نجد أن آباء قليلين، لا يزيد عددهم عن ثلاثة، هم الذين وضعوا الأُسس الروحية التي قامت عليها الكنيسة، وعاشت بها وغلبت الصعوبات التي قابلتها ونجحت إزاء فلاسفة الوثنية، وإزاء عنف الأباطرة في أصعب مواقف الاستشهاد، وعَبْر عصور الاستهتار التي عَمِلَ فيها الشيطان بكل قوته لكي يُمزِّق الكنيسة وتراثها الهائل هذا دون أن يستطيع ذلك. ولا ننسى العصور الوسطى المظلمة التي فيها لم تستطع الجهالة وعدم المعرفة أن تهزَّ الكنيسة أو أن تزعزع تراثها الذي عاش به القديسون وعبروا تلك العصور الطويلة.

نعم، فإن الإنجيل توجد فيه المبادئ والنور؛ ولكن الذي سند الكنيسة في تلك العصور هو الروح القدس في الآباء، وهو الذي جعلهم يسلكون بقوة وجرأة وشجاعة كانت سنداً لكل الأجيال، لأنها كانت

توجيهات قوية من الروح لهذه النفوس التي سارت بتدبيره.

• سؤال: كيف نأخذ في الظروف الصعبة المعاكسة خبرات مختلفة في أوقات مختلفة لآباء مختلفين سبقونا؟

✞ الجواب: هذا عمل الروح القدس، وهو يحدث معنا، إذ يحدث للبعض منا أن يتصرف بتلقائية تجاه أحد الأمور بتوجيه من الروح القدس، ويتضح أن هذا هو التصرُّف الواجب والمطابق لسلوك الآباء؛ هذا من اختصاص الروح القدس. وقد رفع عنا هذا الأمر ستاراً من الظلمة عانت منها الكنيسة، ولا تزال، وهي أن خبرات الكنيسة الأولى وقوتها وعظمتها قد انتهت! لا، لقد ذُقنا نحن وتيقَّنا تماماً أننا نعيش العصور الأولى بروح الآباء وتصرفاتهم. لقد دخلنا في ظروف صعبة حتى الموت، وفي وسط الظلام الدامس كنا نتصرف تصرفات منيرة، ثم يتضح لنا فيما بعد أنها هي خبرات الآباء الأوائل!

إننا نعيش العصر الأول للكنيسة في شخص الروح القدس الذي كان يُحيي الآباء. وها أنا أشرح وأُوضِّح الآن فأقول: كيف نأخذ عملياً خبرة الآباء الحقيقية، لأننا عندما نقرأ تاريخ حياة أب قديس نغبطه ونتصوَّر سموَّه، نرتد في الحال إلى ضعفنا وواقعنا ومنطقنا الخائب، الذي هو عدو لدود للروح. لأن كل مَن يتعلَّم ويدخل المدرسة (الآبائية)، يحاول أن يفحص كل كلام وعمل بحسب منطقه البشري، مما يجعله يرتدُّ. لكن حقيقةً فإن الروح هو هو إن كنا نؤمن بالثالوث الأقدس وأن الروح القدس شخص (أي أقنوم) حقيقي ووعده قائم. إن الروح لا يعمل مع إنسان ليس على مستوى العمل والفعل. فالذي يجلس ويتأمل ويتمنى أن يكون هكذا، لا يعمل معه الروح القدس، لكنه إذا نهض ليعمل فعلاً، هنا فقط يبدأ الروح القدس يعمل معه.

هذا هو ما حدث مع الآباء، فقد كانوا لحسن الحظ غير متعلِّمين أكاديمياً، بل إنهم كانوا يقرأون الإنجيل ببساطة ويعملون به، وفي الحال كان الروح القدس مستعدّاً للعمل معهم. فخبرة القديس أنطونيوس التي استلمتها كل الأجيال هي أنه سمع الإنجيل واقتنع به ونفَّذه. فلو كان قد اكتفى بالاقتناع ووعظ به لما أفادنا ذلك بشيء، لكنه لما اقتنع بالوصية نفَّذها عملياً. إذن، فهناك طريقان منفصلان تماماً:

الأول: هو طريق الفعل والعمل بالروح القدس نتيجة اقتناع.

والثاني: هو طريق الاقتناع والوعظ دون أن يحيا الواعظ بما اقتنع به. وقد يُفيد هذا الواعظ الآخرين، وربما يعملون بما اقتنعوا به دون أن يُحقِّق الواعظ هذا التطبيق العملي للوصية الإنجيلية التي اقتنع بها. وبهذا يصبح الواعظ بحدِّ ذاته إنجيلاً (حرفياً) يستفيد منه الآخرون دون أن يستفيد هو شخصياً به. وبهذا يصير موصِّلاً رديئاً للإنجيل. لكن مَن يعيش خبرة أنبا أنطونيوس يصير هو نفسه عظة بدون عظة!

إننا لن نستطيع أن نكرر خبرة أنبا أنطونيوس لأن خبرته كانت له، لكن الروح القدس يُعطي لكل واحد منا خبرة خاصة به. وأنا هنا أُعطي مثالاً يتناسب مع كل واحد منا. فالقديس أنطونيوس سمع الآية وباع كل شيء، وخرج إلى الصحراء المميتة دون أن يموت لأن الروح القدس حيٌّ. لذلك عاش ولم يمُت لأن الوصية مُحيية وليست مميتة. فخبرة أنطونيوس كانت عالية جداً.

ويوجد مثال آخر: «ينبغي أن يُصلَّى كل حين ولا يُمَلَّ» (لو ١٨: ١). فنحن نصلِّي ونملّ، لكن هنا كلمة 'لا يُمَلّ' يجب أن نختبرها ونعيشها دون ملل. قليلون هم الذين يعيشون هذه الآية. فأمامنا تجربة خطيرة ليست أقل من خبرة أنبا أنطونيوس، فلو بدأنا نصلِّي وأصابنا الملل،

ننـزعج ويقول لنا الشيطان كما قال لأنبا أنطونيوس: "سوف تموت يا صبي العمر والعقل في هذا القفر"، فروح ضد الصلاة من الشيطان تؤدِّي إلى الملل.

كلنا نبلغ حاجز الملل، والذي يزيد صلاته يشعر كأنه سوف يموت، فيُنهي صلاته ويغلق الكتاب المقدس بعد ساعة أو نصف ساعة دون أن يأخذ سر الوصية: "لا تملّوا"! لكن القليلين الذين يخترقون حاجز الملل سوف يأخذون شيئاً. هوذا سرٌّ أقوله: كل مَن استطاع أن يكسر حاجز الملل هذا سوف يجد شيئاً عجيباً جداً، سيجد الروح القدس نفسه، روح الصلاة، الذي سيملأ حياته، والذي سيرفعه فوق كل الأشياء الظاهرة وكل المؤثرات الخارجية، فيبدأ بعد ذلك في زيادة الصلاة ويقتل الملل ويكسر الحاجز.

هنا تُرفَع المؤثرات ويعيش في الحياة الأبدية، لأن روح الصلاة سيملأ حياته بدلاً من ارتعاش ركبتيه وتململه من لدغة بعوضة. فعندما يقطع في نفسه أنه لن يملَّ، حينئذ تُرفع المؤثرات ويعيش الإنسان بلا حزن أو تعب أو ضيق، حتى لو كانت هناك حيَّة فهو يمكنه أن يدوسها، والشيطان نفسه يهرب، والجسد يصير خفيفاً والعقل يكون فَرِحاً جداً، يأخذ من وعد الله ويدخل في جو عجيب من وعد الله: "الحياة الأبدية"، ويُسرُّ ويتعجب؛ حياة بلا ملل ولا ضيق، فلو وقفتُ سنة، فسأستطيع ذلك.

في الحقيقة، هذه - يا أحبائي - هي خبرة القديسين، فإن الإنسان يخرج شخصاً آخر، نظرته للناس تختلف تماماً، كل التقديرات الخاصة بالحياة الحاضرة من جهة الأتعاب والضيقات والمستقبل والإهانة، فلا يصبح في الدنيا شيء يخيفه. لا يخاف الموت ولا الهموم ولا الكرامة.

يدخل في الحياة الأبدية تماماً. أما بالنسبة للآخرين فإن سلوكه يتغير دون أن يدري، فيعمل بفاعلية هائلة: صمته، ابتسامته، وجهه يتغير، كلامه كله يؤثر تأثيراً هائلاً على الآخرين. فبالنسبة له يكون الكل جميلاً، لا يوجد مُعطِّل لأنه تخلَّص من المعوِّقات والضيقات التي كانت تُعطِّل فرحه في المسيح.

الآن نحن وصلنا إلى القلاية التي صارت هي صحراء أنبا أنطونيوس، ووقفة الصلاة صارت في الشمس المحرقة التي كان فيها أنبا أنطونيوس. الجهاد في الصلاة مثل جهاد أنبا أنطونيوس ضد الوحوش والمخاطر والزوابع وبرد الشتاء. خبرة القلاية كانت خبرة كاملة مثل خبرة أنبا أنطونيوس. ثم يخرج الواحد من قلايته بخبرة كاملة كأنه خرج بعد ٢٠ سنة خبرة في البرية. فيمكننا أن نأخذ آية واحدة مثل التي اختارها الروح القدس للأنبا أنطونيوس وعاشها، ليس فقط آية: «صلوا كل حين ولا تملوا» (انظر ١تس ٥: ١٧؛ لو ١٨: ١)، فلو دخلنا في آية: «تعلَّموا مني لأني وديع ومتواضع القلب» (مت ١١: ٢٨)، ولو أخذها الإنسان ودخل في نفس محنة التواضع المريعة، فيستحيل أن يدخل في التواضع دون أن يُنكر ذاته ويضع نفسه تحت الخليقة كلها، ويكون صامتاً لا يتكلم، وإخوته أيضاً يحتقرونه لأنه أبكم، فيذوق مرارة إنكار الذات يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر، يضع نفسه في هذا الآتون كما وضع أنبا أنطونيوس نفسه في آتون الصحراء، يجد نفسه في لحظة قد أشرق عليه مجد التواضع وتصير له طبيعة جديدة. فالناس يختبرونه ويزيدون عليه التجربة فيجدونه لا يتزحزح عن تواضعه. يُمارس التواضع بلا تعب وبلا جهد، تواضع من الروح القدس. هنا جميل جداً أن أقول إن المسيح بعد أن قال: «تعلَّموا مني لأني وديع ومتواضع»، تعرَّض للاستهزاء

والآلام والإهانات والضرب حتى الصَّلْب، وأصرَّ على تواضعه، ولم يتغيَّر حتى الموت، إلى أن انطبقت عليه الآية النبوية: «في تواضعه انتُزع قضاؤه» (إش ٥٣: ٨ - سبعينية).

هكذا بالضبط يكون وضع الآية أو وضع الخبرة الروحية الآبائية The Apophthegm عندما تُقدَّم لنا وندخل فيها عملياً فيتحقق منها وجود الروح القدس أولاً بالإقناع ثم بالتشجيع والاستمرار والانتصار. وربما يكون الانتصار هو الموت نفسه (أي) الاستشهاد. مَن تمسَّك بالآية يجوز الموت نفسه كالمسيح. فهل نتمسك بالآية حتى الاستعداد للموت فعلاً؟ لو بلغنا هذا الاستعداد بالنيَّة، نكون قد انتصرنا فعلاً ونجحنا في الاختبار. وليس بالضرورة أن نبلغ الموت ذاته، بل أن نموت بالنية.

أنبا أنطونيوس خرج ليُطبِّق الآية وأمامه الموت وقَبِلَ أن يسير وراء الآية في طريق الموت. فكل مَن يقبل الموت بالنية لا يموت، لأن المسيح قَبِلَ الموت عنا فعلاً. فقبل أن نرتدي الثوب الأسود يجب أن نكون مستعدِّين أن نحمل الصليب وأن نموت بالفعل.

• سؤال: قدسكم تكلَّمتم أولاً عن خطورة الحياة النظرية والمعلومات النظرية الدراسية التي تُجزِّئ فكرنا (كعائق للخبرة الرهبانية العملية)، فكيف نُصالح أو نوفِّق بين حياة رهبانية بسيطة والدراسات التي ينبغي أن نقوم بها؟

✞ **الجواب:** هناك اتجاهان في الدراسة النظرية: دراسة تتعلق بالإنجيل والآباء، وهذه نعمة كبيرة إذا التزم رئيس الدير بها بحيث لا يدرس الرهبان سوى أمور مختصة بالإنجيل والحياة الآبائية؛ وهناك دراسة أخرى لا تتعلق بالإنجيل أو الآباء.

في الحالة الأولى، أي الدراسات التي تختص بالحياة الروحية، هذه الحالة

قد جُزتُها أنا شخصياً، فلقد درستُ أقوال الآباء (الأبوفثجماتا) واللاهوت وكل ما كُتب عن المجامع، دراسة لا تأمُّل. فوجدتُ أن الدراسة الروحية واللاهوتية يلزمها دراسة سيكولوجية. فدرستُ كتباً Text Books ثم درستُ كتب فلسفة. وكل ما درسته كنت أشعر أنه يُقرِّبني إلى الغاية الواحدة والغرض المستقيم، فالكل كان يخدم الهدف. وجلستُ وتكلمت مع بعض أساتذة علم النفس في الجامعة، فقالوا إن هذا أعجب ما سمعناه بشأن حل مشاكل في علم النفس كنَّا لا نجد لها حلاًّ مقبولاً. فالكل يرفع حالة الإنسان وقلبه، والروح القدس يستخدم كل كلمة لإنارة الطريق أمام الإنسان. الروح القدس كان يُعطيني قدرة استيعاب عجيبة لكل شيء، لأن الكل يخدم المسيح، ومحبة الإنسان للمسيح تصبح كالنار!

أما في الدراسات الأخرى غير الروحية، كدراسة موضوع أو دكتوراه في حياة عالِم أو حياة فيلسوف، فأُعطي رأيي وأنا حزين (ربما كان حزنه بسبب الدراسات الدنيوية التي يقوم بها الرهبان الأجانب). فأقول: علينا الطاعة، هذا ليس شغل في الطين: أحفر خندق وآخذ كل يوم زبالة من القلالي وأدفنها في الحفرة بكل دقة، وأجمع الزبالة دون أن يتطاير منها شيء، وأضعها في الحفرة وأغطِّيها جيداً، ثم أعود إلى قلايتي وأغسل وجهي ويديَّ وأنتصب للصلاة دون أن يضيع قلبي أو منهجي مع المسيح. هذا الاتجاه من الدراسات غير الروحية غير موجود في مصر والحمد لله.

• سؤال: الحياة التي أعيشها الآن بالدير، أرى أنه ليست لدينا تجربة روحية لحياة رهبانية انفرادية في عزلة كاملة عن العالم، كما أن عندنا انفتاحاً على العالم. وقرأتُ في النبذة أن لديكم مشروع تدريب مهني

ومشروع زراعة. فكيف يمكن التوفيق بين حياة الانفتاح على العالم وحياة الوحدة الرهبانية لخدمة الرب فقط؟

✠ الجواب: هذا السؤال من أعسر الأسئلة، وهو يُعتبر أحرج سؤال لأحرج مرحلة من مراحل النضوج الرهباني. ففي الحقيقة، إذا بدأت الرهبنة بخدمة العالم فمحكومٌ عليها بأنها رهبنة عالمية لا ربانية، ولا تُرضي الرب. هذا ما أقوله بناءً على ما أراه بعينيَّ. طبعاً من بين هؤلاء الرهبان سيكون هناك مَن هم أمثلة جيدة، كما يوجد بين العلمانيين أمثلة طيبة. لكن الشكل العام وروح العالم بالنظام الرهباني المتصل بالعالم لن يكون له أثر رهباني. كل ما سينجح في هذا النظام الرهباني يكون مثل: «كنتُ مريضاً فزرتموني»، أو تعليم في مدرسة....إلخ.

لكن اختبار المواجهة مع الروح القدس وتذوُّق الحياة الأبدية والحياة الروحية العميقة، هذه كلها تكون حينئذ عسيرة جداً كما هي عسيرة على الموجودين في العالم. إنما في الحياة الرهبانية التي تبدأ خطواتها الأولى بالعبادة والصلاة والأعمال المحدودة، والجماعة كلها تُصلِّي وتعبد بالروح، ومرتبطة بالروح، والأب يعطي خبرات وتداريب روحية؛ فإنَّ الفرد يبدأ ينسلخ من حياة الماضي، وينمو ويستيقظ بروحه، وتتغيَّر أفكاره وذهنه، وينضج بروحه ويصير صالحاً للتأثير في خدمة المجتمع. وعندما تظهر نماذج صالحة في رهبان أخذوا خبرات روحية وبدأوا يتغيرون وأخذوا روحاً جديدة وخبرات روحية داخل القلاية؛ يجدون أنفسهم تلقائياً مدعوُّون للعمل.

عندما كنتُ في قلايتي في عمق تعزيتي ودموعي وفرحي، وجدتُ نفسي أقول: "هأنذا فأرسلني". ثم قلتُ لنفسي: "كيف؟ إنني لا أستطيع أن أترك المغارة ولا أخرج من بابها"؛ إذ كنتُ قد انعكفتُ على نفسي دون

تعامُل أو حديث مع إنسان، فقط كل ٤٠ يوماً كنتُ أذهب إلى الكنيسة للتناول. وبعد ذلك بقليل وجدتُ الدعوة قد جاءت، فرفضتُها بشدَّة وقلتُ لأسقف الدير ثلاث مرات: "لا تأتِ إليَّ ههنا". لكنني أحسستُ بالروح أن الدعوة هي من السماء ولابد من الخروج والتنفيذ، فلما جاء إليَّ مرةً رابعةً وافقتُ وصحبته (للعمل كوكيل للبطريركية في الإسكندرية).

هنا عندما يتجدَّد العضو ويتغيَّر ويتشكَّل بالمسيح، لا يمكنه حينئذٍ أن يظل بمفرده ولن يطيق أن ينفرد. هذا لو كان هو ينضج نضوجاً كاملاً، وهذه علامة صحة العزلة. يمكن أن يتوقف ويكتفي بالأكل والشرب والنوم وتأملات خفيفة، لكن هذا نضوج غير كامل. وهذا ما حدث في الدير فعلاً. فقد أخذنا عهداً على أنفسنا بعدم الخروج وعدم نوال رتب كهنوتية ولا تكون لنا علاقة بالناس، وأخيراً وجدنا أنفسنا مضطرين أن نفتح الباب لنخرج للعمل في المنيا وفي أفريقيا (عندما أرسل الأب الروحي (بناءً على طلب الرئاسة الكنسية) بعض الرهبان إلى المنيا وإلى بعض دول أفريقية عام ١٩٧٧).

• **سؤال: هل مثل هذا النضوج الجماعي يسمح للراهب المبتدئ أن يجوز في كل الخبرات التي تجوزها الجماعة كلها معاً في نموِّها؟**

✞ **الجواب:** نحن نَلمح ظاهرة غريبة أسمع عنها لأول مرة، وهي أن الخبرة الروحية تُنقل بالروح، فكل خبرة روحية دَفعتُ ثمنها بدموع في سنوات طويلة، مجرد أن أذكرها للرهبان تنتقل للآخرين بصورة عجيبة ربما بقوة أكثر مما هي عندي، كما أخذ الروح القدس من موسى وأعطى للسبعين نبيّاً. أقدس ما في حياتنا الروحية السرِّية ينقله الروح. هكذا ينقل الروح القدس الخبرة التي أعطاها أو أهداها للشخص إلى

الآخرين! فالمبتدى يأخذ في خمسة شهور ما أخَذَتْه الجماعة في خمس سنوات. وعندما يتكلَّم مع الأب في جلستين أو ثلاثة، وأفتح له قلبي، وأُشير عليه بقراءة شيء، أو بالأكثر عندما أحكي له (ما اختبرته)؛ أجد أنه سائر معي وكتفه من كتفي، وما أخذته في ٢٨ سنة أجد أنه سرقه كله بصورة أو بوسيلة غير تعليمية على الإطلاق.

هناك خبرة معادلة كمثال من العهد القديم، وهي لما أخذ الروح القدس من موسى ووضع على السبعين نبيّاً بسبب العوز في البرية وضيق الوقت. موسى تعلَّم لمدة ٣٠ أو ٤٠ سنة من رؤساء الكهنة المصريين وأخذ خبرة مع الناس والملوك عميقة ومذهلة. أخذ حكمة ودراية: «تهذَّب موسى بكل حكمة المصريين» (أع ٧: ٢٢)، وحكمة الروح القدس هي أنه أخذ كل ما لموسى ووزَّعه!

حديث مع وفد التليفزيون الفرنسي

(يناير عام ١٩٧٨)

• سؤال: كيف يتم تغيير الإنسان؟

✞ الجواب: هل يمكن أن يوجد مثال للإنسان السوي أفضل من المسيح؟ كل العالم وجميع الديانات: الهندوس والبوذيون والمسلمون وغيرهم، يقولون جميعاً إن المسيح شخصية فائقة. ولكن كيف نتغيَّر؟ هنا تظهر الحقيقة أن الله فعلاً من داخل (الإنسان) يصير هو المسئول عن التغيير، والتغيير يُعطي للإنسان الصورة الأساسية التي يتغيَّر على أساسها، ليس كأمر بعيد، ولكن بناءً على التلاحُم الذي تمَّ بين المسيح والإنسان. هذا الاتحاد يأخذ كل ما للمسيح ويُعطيه للإنسان، كل صفات البنوَّة يُعطيها للإنسان.

هل العالم يحتاج أكثر من أن يعيش الإنسان مثل يسوع، مُحباً للبشرية، مُحباً للضعفاء، مُحباً للمظلومين، قادراً أن يرثي للضعيف والمريض والمسكين؟ وأيضاً قادراً أن يواجه الأقوياء والملوك وأن يعنِّف الكهنة ورؤساء الكهنة؟ هل يمكن أن توجد في العالم صورة مثل يسوع المسيح ينبغي أن نتغيَّر إليها؟ ما هذه القوة؟ وما هذه البساطة التي فيه؟! هو بسيط مثل نسيج ثوبه حتى أنه أيضاً لم يكن مخيطاً، لأنهم يكذبون عندما يرسمون ثوبه منقوشاً بالذهب والقصب... إلخ؛ فهم يُشوِّهون

صورته. فالمسيح كان يرتدي ثوباً غير مخيط، بل منسوجاً كله من فوق إلى أسفل، وفي منتهى البساطة، وكان شعره متدلياً على كتفيه والهواء يعبث به هنا وهناك. وكان يلبس صندلاً، وفي منتهى الحرية والبساطة. وكان يمشي في الحقول ويقول لهم: "انظروا وتأملوا جمال الزهور". لأنهم أصلاً كانوا يتعجبون لمنظر الطبيعة، فكان يقول لهم: "تمثَّلوا بها وكونوا هكذا، انظروا إن هذه الزهور لا تتعب ولا تغزل، كونوا هكذا".

ثم إنه هو في منتهى الحق ومنتهى القوة ومنتهى الصرامة، كان ضد النجاسة وضد الغش والخداع لأية شخصية مهما كانت. وفي نفس الوقت بعد أن ينقل هذه الصورة، بعد أن يجعلهم يحسُّون بالبساطة والطبيعة الحلوة يقول لهم: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو ١٤: ٩).

إذن، فقد أعطى المسيح لنا الصورة الأصلية لله، وليس فقط يدعونا إليها، بل إنه يأخذنا ويوحِّدنا في نفسه، لكي يرتقي بالبشرية إلى الدرجة الأخيرة التي تكون فيها مؤهَّلةً للحياة الأبدية. لما مارستُ أنا ذلك صرتُ إنساناً آخر، فبينما أكون ماشياً على الأرض، أشعر أنني صرتُ متغيراً. فما الذي حدث؟ ثم أقول: يا رب، هل هذا هو الملكوت؟ أليست هذه هي الحياة الأبدية؟ هل ينقص شيء؟ ها قد صرنا مثلك يا رب تماماً! فما هو الذي عملته فيَّ؟ هذا غير معقول إطلاقاً! أنا كنتُ فين وصرتُ إيه؟ مارستُ ذلك ورأيته وذقته. ومن ثمَّ أقول إن هذه الدعوة هي لكل إنسان.

إنني لم أتعب ولم أجد أمامي صعوبة لكي أصل إلى المسيح، لم أجد صعوبة لكي آخذ الكلام الذي يفوق العقل! فكل الأشياء التي توضَع لها مناهج وتداريب لأيام وسنين، أنا لا أعرفها ولم أعش بها. لم أجد أي فاصل يفصلني عن المسيح لكي أراه وآخذ كلامه فوراً! لذلك أقول إن

هذه الدعوة هي لكل إنسان يسمعني، لكل علماني في العالم كله. المسيح سهل والحياة المسيحية سهلة، كما أنه لا يوجد ثمن ندفعه، فالمسيح دفع الثمن كاملاً.

• **سؤال: ما هي الصعوبات التي تُوقف الإنسان عن بلوغ الهدف، وعن التغيير إلى صورة المسيح؟**

✞ الجواب: الصعوبات هي: المسرَّات الكاذبة التي للعالم: اللهو، واللعب، والأصحاب الذين يُضيِّعون الوقت، والرغي وكثرة الكلام، والجلوس الذي بلا فائدة على المقاهي... إلخ. وبعد ذلك لا نجد في الـ ٢٤ ساعة وقتاً لنجلس فيه مع ربنا ومع أنفسنا. هذا هو الحاجز الوحيد الذي يفصل بيننا وبين الله. وببساطة جداً جداً، كل شيء يُبعدنا عن أنفسنا، كل شيء يجعلك تهرب من نفسك (مثل الخمر والمخدرات واللهو والجنس والعمل في السياسة والأحزاب... إلخ). هذا الحاجز هو الذي يُبعدنا عن الله.

❖ ثم تطرَّق الحديث عن وجود الشيطان كقوة مُحرِّكة للشر في العالم تعرقل مسيرة أولاد الله نحو الملكوت. وهنا اندهش بعض مندوبي التليفزيون الفرنسي متعجبين! لأنهم لم يشعروا بتلك القوة المضادة ولا يعتقدون بوجود شيء يُدعى الشيطان أصلاً! فأجابهم الأب متى المسكين بأنهم لا يشعرون بتلك القوة لأنهم يسيرون مع التيار، لأن الذي يسلك مع تيار العالم لا يحس بقوة دفع التيار له من خلف، ولكن الذي يترك العالم ويسير ضد تيار شهواته، يشعر بمقاومة التيار ومقاومة الشيطان بشدة له، ويتيقَّن تماماً من وجود الشيطان كقوة تُقاوم وتعرقل أولاد الله في سعيهم نحو الله وملكوته.

حديث مع وفد
كنيسة السويد

(٢٠ / ٣ / ١٩٨٠)

رجاء تجديد صورة الله في الإنسان:

نحن نعيش على رجاء، ولنا رجاء كبير جداً في الله، أنه لابد أن يعمل شيئاً غير عادي بالرغم من كل الميئِّسات الموجودة حالياً من جهة الحياة الروحية في أوروبا. ورجاؤنا قائم على أساس وعود الله. وكل أساس وُضع باسم يسوع المسيح لا يمكن أن يُمحَى، حسب إيماننا الأرثوذكسي، أن الله خلق الإنسان على صورته، وأن هذه الصورة لا يمكن أن تُمحَى مهما كان وبأية قوى سلبية كانت. ربما هذه الصورة تتشوَّه، ولكن لا يمكن أن تُمحَى. الإنسان مهما استمر في خطيته وبلغ حتى أعماقها، يحس أن الطريق لا يزال أمامه مفتوحاً والرجوع سهلاً، لماذا؟!

لأن الصورة موجودة ولكنها فقط ضَعُفت. هكذا العالم أيضاً بدأ يأخذ روح المسيح لأنه لا يمكن أن يكتفي المسيح بأن يتصور في أفراد فقط، فلابدّ أن يتصور في العالم كله. هنا يأتي إيماني وثقتي ورجائي الذي أعيش به، وهذا يدفعني أن أشعر أنه لا يفصلنا الإيمان بالمسيح، لا شمالاً ولا جنوباً، ولا اختلاف الشعوب، ولا اختلاف العقائد تستطيع أن تُضعف من قصد المسيح أنه يتصوَّر في العالم كله، وهذه حقيقة ملموسة. التقوى موجودة في الشرق والغرب والشمال والجنوب، تقوى

شديدة، هذا هو أساس رجائي، وأنه لابد أن تكون البداية هي في الوصول إلى نفس الهدف الذي يقصده المسيح من الصليب.

ورغم أننا رهبان موجودون داخل الدير (قد متنا عن العالم)، وليس لنا خروج من الدير ولا خدمة؛ ولكن لأن إيماننا قوي، ابتدأ الله أن يعمل بنا دون أن نتحرك. هذا ما حدث فعلاً، دون قصد منا، وهذه هي الصورة لكي تأخذوا منها ما يناسبكم في بساطة.

❖ ثم شرح الأب متى المسكين لوفد كنيسة السويد، خبرته هو الشخصية في التغيير إلى صورة الله، تلك الخبرة التي سلَّمها فيما بعد لأبنائه الرهبان. وكيف أنه لما عاش الإنجيل وأحداثه كحقيقة وتمسك بمواعيده، تيقَّن أن ملكوت الله حقيقة واقعة رآها بعينيه وتحقَّق منها، إذ في هذه الحياة الحاضرة استُعلنت له أسرار الملكوت وصدق كل مواعيد الله بالنسبة للملكوت. واستُعلن له الله في معاملاته مع الإنسان كاستعلان لشخص الله. كل هذا انعكس على حياة الأب الروحي وأخذه لنفسه كما أخذه الآباء الذين قبله، وهذه الصفات انعكست بالتالي على علاقته مع الناس والعالم، وتعمَّقت أكثر بشركته في آلام الرب؛ إذ صارت التجارب والآلام تقدُّماً في معرفة الرب، ونمواً في نعمته وصفاته، ومصدر فرح وسلام لا يُنـزَع ولا يوجد شيء في العالم ينـزعه.

روح التبنِّي الذي يحثنا أن نتشبَّه بابن الله:

ما أسهل الحياة المسيحية وما أسهل طريقة الخلاص التي سلَّمها لنا المسيح، ولكننا عقَّدنا الأمور. وسأدخل في الجزء العملي في حياتنا المسيحية: أنتم تعرفون أن المسيحية بدأت بالتجسُّد الإلهي. البشرية تغرَّبت عن الله، وكان قصد الله من تجسُّد الابن أن يعطينا روح ابنه.

وهذا قد تمَّ بالفعل، وبصورة علنية وعجيبة وعظيمة. فاليهودية المنكمشة في ذاتها تفجَّرت منها طاقات النبوَّة الإلهية في الرسل، شيء لا يمكن تصديقه! لقد ابتدأت البشرية بالرسل تأخذ أعظم هدية أهداها الله للإنسان، وهي الروح القدس، روح يسوع المسيح كما سماها بولس الرسول كثيراً، أخذنا روح الابن، روح يسوع الذي به نستطيع أن نخاطب الله المخيف المرعب وندعوه "أبانا".

ولكن هذا ما بدأنا نفقده بالفعل، روح الابن الذي به نخاطب الله "يا أبانا"، روح الابن جعلنا إخوة لنكون «مشابهين صورة ابنه ليكون هو بكراً بين إخوة كثيرين» (رو ٨: ٢٩). على مستوى هذه الأُخوَّة الكاملة للكنيسة في العالم، كلنا نقول: "يا أبانا"، وليس "يا أبي". وهذا هو الغرض الأساسي من مجيء المسيح، أن يجعل البشرية كلها أسرةً واحدةً تعيش معه وتخاطبه بأنه هو الآب.

بدأنا نفقد هذه السمة، أي روح البنوَّة، ليس فقط بين البشرية والله، بل أيضاً بين بعضنا البعض. أي أننا لما أخذنا روح البنوَّة من الله أعطى هذا الروح للبشرية والأسرة المسيحية روح البنوَّة لله، فكانت الأسرة مترابطة، والطاعة متوفرة، والأُسر كلها تعتبر نفسها أبناء للكنيسة، والكنيسة كلها، بكل أبنائها، تتقدَّم في المسيح بروح البنوَّة لله. وقد انعكست روح البنوَّة التي أخذناها من الله على كل مرافق الحياة.

الإيمان قائمٌ على البنوَّة لله، والبنوَّة قائمة على التقليد الذي أخذناه من الكنيسة الأولى في مخافة الله وعلاقة الأبناء بالآباء. بتجسُّد المسيح من العذراء مريم بهذه الصورة البسيطة، أمكن أن يتجسَّد في قلب البشرية روح البنوة. فمجرد الالتصاق بإخلاص بالإنجيل يرجع لنا مرةً أخرى سر المسيح. كانت سيدة بعيدة عن الله ولها ابنة انحرفت، فجاءت

وقالت لي: "ابنتي انحرفت وأنا لا أحتمل ذلك، أريد أن أموت أفضل". هذه صورة لضياع روح البنوة في الأُمِّ والبنت؛ روح البنوة بالنسبة لله، وروح البنوة بالنسبة للحياة الاجتماعية. فكيف ترجع روح البنوة لله ولبعضهما البعض في يوم واحد؟ هذه التجربة لك أنت. لقد قلتُ لها: "هل يمكن أن تؤمني بالمسيح وتغيِّري حياتك"؟ فقالت: "نعم". فقلتُ: "الإيمان بالمسيح يُشبه واحد في الدور الثالث والمسيح في الشارع، وهو يقول لكِ: ارمِ نفسك، فترمين نفسك! الإيمان بالمسيح هو الإيمان باللامعقول وبالمستحيل. صلِّ وعندما تشعرين في أعماقك أنك مستعدة أن ترمي نفسك حسب كلمة المسيح ويحدث ما يحدث، تعالي".

فذهبت وصلَّت ساعتين بدموع، ثم جاءت وقالت: "أنا مستعدة أن أرمي نفسي". فقلتُ لها: "صلِّ صباحاً وظهراً ومساءً، واقرأي الإنجيل، وتناولي كل أسبوع". فنفَّذت هذا الكلام، ورأت ابنتها ذلك، فتابت وتقلدت بأُمِّها، ولبست ملابس محتشمة، وصارت تُصلِّي وتتناول. ثم جاءت الأُمُّ وقالت لي بدموع: "المعجزة تمَّت"، لأنني قلتُ لها: "لو آمنتِ بالمسيح سترجع ابنتك". فرجعت بالفعل وعاشت الأُمُّ والبنت في حياة تَقَوية!

هذه صورة ترى فيها كيف يضيع منا المسيح المتجسِّد، وتضيع معه كل العلاقات البشرية وكل آمال الإنسان في الحياة، وكيف يعود المسيح يوماً ما ومعه كل الآمال. اليوم، لا تزيد الأسرة البشرية في أوروبا وأمريكا عن هذه الأُم، فإذا رجعت الأُم إلى الله بروح البنوَّة، يرجع إليه البنون أيضاً بذات الروح. في الحقيقة، لو كان المسيح خليقة مثلنا لما استطاع أن يُعطينا روح البنوة الإلهية، ولكن الله أرسل ابنه ليأخذ جسدنا لكي نتحد به فنأخذ نصيبنا في العلاقة الذاتية الشخصية بين الآب والابن،

أي أننا مدعوُّون إلى أن ندخل في سرِّ الثالوث.

جاء الابن وتجسَّد وتألم لكي يعطينا روح البنوَّة، لكي يكون لنا بالله الآب علاقة أبدية لا تنفصل إطلاقاً. لكن هذه العلاقة هي بالنعمة كهدية gift، لكنها بالنسبة للابن فهي طبيعية. نحن مخلوقون على صورته، وهذا هو الذي يجعلنا نعرف الله ونحبه.

- **سؤال: هل خَلْق الإنسان يُعبِّر عن احتياج الله للإنسان؟**

✞ **الجواب:** البشرية إدراكها محصور في الوجود المادي فقط، وإدراكنا لوجودنا البشري قائمٌ على الزمان والمكان، ولكن وجود الله لا يقوم على الزمان والمكان. وإدراك الله غير محصور في الزمان والمكان. إذن، فنحن كنا مخلوقين في اعتبار الله قبل أن نُخلَق. لذلك فإن خلقتنا لا تُشكِّل حدثاً بالنسبة لله، لأننا كنا مخلوقين في فكر الله قبل أن نوجد. نحن مخلوقون في المسيح قبل إنشاء العالم: «كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم» (أف ١: ٤)، «لأننا نحن عمله، مخلوقين في المسيح يسوع لأعمال صالحة، قد سبق الله فأعدَّها لكي نسلك فيها» (أف ٢: ١٠). خلقتنا بالنسبة لله هي عمل إلهي، وكل أعمال الله تقوم على الحب لأن الله محبة.

فنحن قد وُجدنا في المسيح يسوع على أساس الحب الإلهي، وقد خُلقنا على صورته. وقبل أن يخلقنا كنا موجودين كفكر لا يتعلق بالزمان والمكان، ولما خلَقَنا الله بدأ يُظهر الحب، لأنه خلقنا على صورته. أول لمحة تكشف حب الله لنا هي خلقته لنا على صورته، واللمحة الأخيرة المذهلة أنه لما أخطأنا ظهر الحب أكثر في أنه بذل ابنه لكي يرفع عنا الموت ولعنته ويُرجعنا ثانيةً إلى العلاقة الأساسية به: أن نكون أولاده وفي علاقة أبدية. إذن، فهي علاقة قائمة على المحبة.

أولاً قبل خلقتنا كنا موجودين في فكر الله كفعل من أفعال الحب

الإلهي، ثم عندما خُلقنا ظهر الحب الإلهي في خَلْقنا على صورته، ثم ظهر الحب الإلهي أكثر لما سقطنا وطُردنا بسبب أعمالنا، فاتخذ هو من نفسه المبادرة ودفع الثمن وأرجعنا ثانيةً وأذاقنا فعلاً الحب الذي كنا مخلوقين به قبل أن نُخلَق. فالخلق هو فعل حب رائع لا يقوم على زمان ومكان.

البشرية لم تُخلَق لتضيع، ولكن لكي تجد مكانها في قلب الله، ولكن في الحقيقة إن الحياة الأبدية ليست حقّاً للإنسان، ولكنها ستظل هبة. نحن كلنا مدعوُّون لملكوت الله بدون فضة. والذي يقبل يأخذ، والله بريء من الذي لا يريد أن يأخذ، لأنه ليس حق للتراب أن يأخذ ويرث ملكوت الله! وهذه هي الخطورة، أنَّ الخلاص سهل وبالمجان، ونحن لا نريد أن نأخذ! وذلك كالمَثَل الذي ذكره الرب عن الوليمة ورفض المدعوِّين أن يحضروا. وكما حدث مع خادم مدارس الأحد الذي أشار للأولاد إلى ساعته الثمينة قائلاً: "مَن يريد أن يأخذها"؟ وشكَّ الجميع ما عدا ولدٌ صغير أسرع وطلبها، فتركها له الخادم فعلاً وأخذها الولد، أما بقية الأولاد فتذمَّروا. فالخلاص مجاني وبسهولة، لكن لمَن عنده جرأة ويأخذ!

مَن يقبل المسيح ويدخل معه في عهد حقيقي يكسب الحياة كلها. فإن كان طبيباً أو عاملاً أو مهندساً، تزداد كرامته وماله؛ وإن كانت زوجة، يزداد حب زوجها وأولادها لها. فلا يمكن أن يحب أحدٌ المسيح ويخسر. ومعرفة الله والتعلُّق الشديد به يزيد جداً من إمكانيات وكرامة الإنسان.

وأقول لكم إننا نحن كرهبان نستمتع بالحياة أكثر منكم: الشمس والهواء والزرع والزهور والطيور، كل ما في الحياة نستمتع به إلى آخر نقطة، بعكس الناس المهمومة الذين يجرون وراء اهتمامات كثيرة. الحياة في ذاتها عندنا تستحق أن نحياها مع أننا نعمل أكثر منكم! معنى ذلك أن المسيح يجعل الحياة أجمل مما هي عليه.

حديث مع مندوب
هيئة التليفزيون الألماني

(أول يونية ١٩٨٠)

• **سؤال: ماذا يمكن أن تفعله الكنيسة لتتجنب أي انقسام يحدث في الدولة أو حتى داخل الكنيسة؟**

✞ **الجواب:** هذا من أذكى الأسئلة التي سمعتها في هذا الموضوع، وفعلاً ينبغي أن يكون وضع السؤال هكذا. هذه هي رسالتنا في الحقيقة، لأننا إذا لم نكن قادرين أن نتعامل مع الحكومة أو المسلمين – حتى ولو كان هناك اضطهاد – فنكون قد فشلنا أن نكون مسيحيين، ونكون قد فشلنا في تطبيق الإنجيل. فما بالك إذا قلتُ الآن وقررت أنه لا يوجد اضطهاد حقيقي أو اضطهاد منظَّم، ولكن هذه انفعالات فردية في مواقف فردية لا نعتبرها عامة.

هنا أصبحت رسالتنا، رسالة الكنيسة والإنجيل، من أهم وأخطر ما يمكن أن تُعطي مثلاً للتعايُش، ليس التعايش السلمي كما يسمونه كتعبير عام، كلاً، بل تعايُش حبِّي على مستوى الأُخوَّة والصداقة الحقيقية بيننا وبين المسلمين. لأنه حتى ولو كان هناك اضطهاد خفيف، ويُعتبر فرديّاً ومحلِّيّاً؛ فنحن بتطبيقنا لمبادئ الإنجيل، المبادئ الأخلاقية المسيحية، نستطيع ليس فقط أن نتجاوز الاضطهادات، بل يمكننا أن نحوِّلها إلى مكاسب.

وهذا هو في الحقيقة ما استطعنا أن نُنفِّذه بالحرف الواحد في هذا الدير على مدى ١١ سنة (عام ١٩٨٠)، وفي حياتنا السابقة على هذا الدير على مدى ٣٢ سنة؛ حيث كان تعامُلنا مع الجميع بنجاح يُعتبر في رأي الدولة وكل مَن يعرفنا من المسلمين والمسيحيين الحكماء أننا نجحنا ١٠٠ ٪ في هذه العلاقات!

يُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا – تليفون ٢٥٧٧٠٦١٤

الإسكندرية: ٨ شارع جرين، محرم بك – تليفون ٤٩٥٢٧٤٠

أو عن طريق موقع الدير على الإنترنت:

www.stmacariusmonastery.org

أو عن طريق مكتبة الدير